مركز تدبر للدراسات والاستشارات

المراحل الثمان

لطالب فهم القرآن



د/ عصام بن صالح العويد

دار الحضارة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى



المراحل الثمان

لطالب فهم القرآن

عصام بن صالح العويد

عضو هيئة التدريس

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الناشر



مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية.

الطبـعة الثانية

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

المملكة العربية السعودية.

الرياض - الدائري الشمالي - مخرج ٥

تلفاكس ٤٥٦٣٤٢٣ - ص.ب. ١١٦٥٢ / ٨٧٦١٢

البريد الحاسوبي tadabbor@gmail.com

الإخراج الفني

أبو عمر

محمود بن شوقي بن مفلح

٠٥٤٤٣٤٣٧٧١

الرياض

للتواصل عبر البريد الإلكتروني

mahmoodshawqi@yahoo.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العويد، عصام صالح محمد

المراحل الثمان لطالب فهم القرآن / عصام صالح محمد العويد

ط٢ - الرياض ، ١٤٣١ هـ

١٦٨ ص ، ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٣ - ٤١٣٤ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - علوم القرآن   ٢ - القرآن - مباحث عامة   أ. العنوان

ديوي ٢٢٠   ٥٥٨ / ١٤٣١

رقم الإيداع : ٥٥٨ / ١٤٣١

ردمك : ٣ - ٤١٣٤ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبعد:

فإن إقبال عموم المسلمين -بله طلبة العلم- على تدبر القرآن الكريم؛ لأمر يبعث على السرور والاستبشار، كيف لا؟ وهذا الأمر هو أحد أهم مقومات عودة الأمة إلى مجدها وعزِّها الذي فقدته حين ابتعدت عن كتاب ربها، وهجرته بأنواع من الهجر[1]، ومن أعظمه: هجر تدبره والعمل به، والتحاكم إليه، إلا ما شاء الله.

ولما كان القرآنُ المجيدُ أصلَ العلوم كلها، كان لا بد من ضبط المنهجية التي يتعامل بها طلاب العلم في فهم كلام الله تعالى، حتى لا تزل قدم، ولا يزيغ فهم عن جادة السلف الصالح، الذين فهموا القرآن كما ينبغي، فترجموه واقعًا عمليًّا، فسادوا به الأمم، ودانت لهم الدنيا.

وضبطُ هذه المنهجية تحتاج إلى دراسات كثيرة وكتابات متنوعة من أهل

---

(١) وقد فصل ابن القيم -رحمه الله- أنواع الهجر هذه في صدر كتابه «الفوائد».

الاختصاص، وما هذه الدراسة الموسومة بـ: «المراحل الثمان لطالب فهم القرآن» التي قام بها أخونا فضيلة الشيخ عصام بن صالح بن محمد العويِّد -عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والعضو المؤسس للهيئة العالمية لتدبر القرآن- إلا إسهامٌ في ضبط المنهج، وإرشاد طالب العلم السالك في هذا الباب.

ويَسرُّنا ويُشرِّفنا في مركز تدبر، أن تكون أول طبعةٍ لهذا الكتاب ضمن إصدارات المركز المتخصصة في هذا الباب، وهو في الوقت ذاته حلقة في سلسلة متتابعة -بإذن الله- في نشر كل ما يخدم هذا المعنى الشرعي العظيم: «التدبر».

وأجدها فرصة لزف البشارة لجميع الباحثين المهتمين بهذا الموضوع، بأننا في مركز تدبر نسعد ونرحب بالدراسات العلمية الجادة التي تؤصل وتبحث في هذا الموضوع (التدبر)، وسنكون أول المعينين -بإذن الله- على نشرها وطبعها وتوزيعها، بعد إجازتها من اللجنة المختصة.

ختامًا.. أشكر أخي وصديقي العزيز فضيلة الشيخ عصام على هذا الجهد المبارك في تحرير هذه الرسالة، جعلها في ميزان حسناته، وذخرًا له في حياته وبعد مماته.

وكتبه/

د. عمر بن عبدالله المقبل

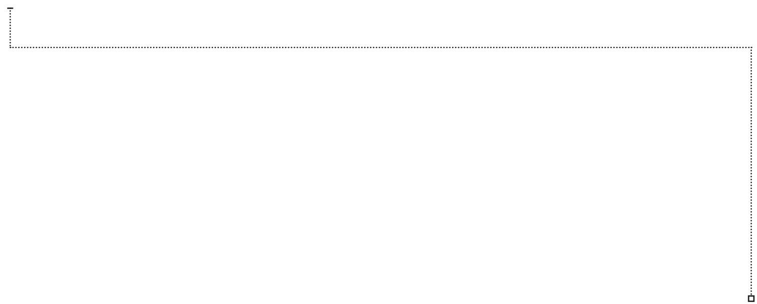
المستشار العلمي لمركز تدبر

عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة

جامعة القصيم



المقدمة



﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

والصّلاة والسّلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه،،،

أما بعد:

فهذه رسالة « **المَرَاحِـلُ الثَّـمَان لطَالِب فَهْم القُرْآن** »، وهي في أصلها دروس علمية ألقيت على عدد من المشرفات والمدرسات في مدارس تحفيظ القرآن النسائية[1]، وهي رسالة علمية محضة، تتحدث عن أمر جليل القدر عظيم الأثر، يتعلق بكلام الملك الرحمن عز وجل الذي أنزله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحديد.

----

(١) في الفصل الثاني للعام الدراسي ١٤٢٢ـ ١٤٢٣ هـ.

وصفه تارة بأنه نور: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ ﴾ التغابن.

وتارة بأنه برهان: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ١٧٤ ﴾ النساء.

وفي ثالثة بأنه الحق وما ناقضه ضلال: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ ١٠٨ ﴾ يونس.

وفي أخرى بأنه موعظة وشفاء وهدى ورحمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ يونس.

وتوعد من قلاه وأعرض عنه ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ ﴾ طه، وذِكْرُهُ هو القرآن.

وصَدَقَ الله إذ يقول: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠ ﴾ المرسلات.

وما أجمل قول الشاطبي - رحمه الله- واصفًا كتاب الله تعالى في ألفيته المشهورة:

وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَـقُ شَافِـعٍ ★★★ وَأَغْنى غَنَاءٍ وَاهِبًا مُتَفَضِّلاَ

وَخَيْرُ جَلِيسٍ لاَ يُمَـلُّ حَـدِيثُه ★★★ وَتَـرْدَادُهُ يَـزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاً

وَحَيْثُ الْفَتـى يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ ★★★ مِنَ الْقَبرِ يَلْقَاهُ سَناً مُتَهَلِّلاً

وكنتُ أعجب -كما عجب أسلافنا- من مقولٍ بليـغ لعربي جاهـلي صنديدٍ عنيـد وهو يصف الـقرآن المجيـد، يقول: «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن

أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى».

فلما قرأتُ قولَ بليغ فيلسوفٍ! فرنسي !! ملحد !!! وهو جوزيف آرنست رنان، زال -والله- عجبي منهم، وبقي عجبي منَّا، واسمع لما يقول:

«تضم مكتبتي آلاف الكتب السياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها والتي لم أقرأها أكثر من مرة واحدة، وما أكثر الكتب التي للزينة فقط، **ولكن هناك كتاب واحد تؤنسني قراءته دائماً هو كتاب المسلمين القرآن، فكلما أحسست بالإجهاد وأردت أن تنفتح لي أبواب المعاني والكمالات، طالعت القرآن حيث أنني لا أحس بالتعب أو الملل بمطالعته بكثرة، لو أراد أحد أن يعتقد بكتاب نزل من السماء فإن ذلك الكتاب هو القرآن لا غير، إذ أن الكتب الأخرى ليست لها خصائص القرآن»**.

أليست هي بنفسها مقولة الوليد بن المغيرة ؟

فما الذي جعل الوليد وجوزيف ! يتفقان على أن القرآن (يعلو ولا يُعلى عليه)؟

صدق الله عز وجل ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ الزخرف.

وقد تأملت في أحوال أمة محمد ﷺ فوجدتُ أنهم في موقفهم من كتاب الله على أقسام ثلاثة:

أ- قسم أعرض عن كتاب الله وهؤلاء خُصماء رسول الله ﷺ يوم القيامة ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ الفرقان، وليس الحديث معه في هذه الرسالة.

ب- قسم يقرأ كتاب الله تعالى للتلاوة فقط، وأيضاً هذا القسم له رسالة أخرى غير هذه.

جـ- قسم يُراجع كتب التفسير، وله همة في فهم كتاب الله، لكنه يشعر بأنه ما زال بعيداً عن التدبر الحق لهذا الكتاب العظيم، ولذا كثيراً ما ترِد وتُلح عليه تلك الأسئلة الثلاث، ولهذا وأمثاله ـ كثـَّر الله من أمثاله ـ كانت هذه الرسالة.

وهذه الرسالة هي الثالثة بعد أختيها، كتبتها لأهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصَّتُه، رقمتُها بل نقشتُها لمّا وقفتُ من أحبتي على عملٍ يعوزه علم، وقراءةٍ يعوزها فهم، ورأيتُ جُهداً يعوزه تسديد، وسيراً على طريق يعوزه تعبيد.

وهي ثلاثة أثلاث: ثلثٌ لله ورسوله ﷺ، ثم ثلثٌ لأئمة أهل العلم، وثلثٌ مِلاطٌ بينهما، وقد كنت أخشى كثيراً أن يتوقف القلب قبل أن يجف القلم، لكن الله ــ بفضله ــ أمدَّ بالعُمر فأحمد الله على توفيقه.

ولعلك ــ أخي المبارك ــ عندما تعي مضمونَ هذه الرسالة ستجد (مفاتيح) جوابٍ سهلٍ واضحٍ عن أسئلة ثلاثة أعيت العقولَ وأمرضت القلوبَ المؤمنة:

١- كيف فهم سلفنا هذا الكتاب المهيمن، وكيف كان حالهم بعد أن فهموه ؟

٢- لِمَ نقرأ كتب التفسير ولا ندرك المعنى العظيم لآيات هذا القرآن العظيم، أي لِمَ لا نستشعر إعجاز كلام الله حال قراءتنا له، مع يقيننا التام بأنه معجز ؟

٣- كيف يكون القرآن العظيم هادياً لنا وفيصلاً بيننا في كل شؤوننا العقدية والتعبدية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والسياسية والإعلامية والذاتية ونحوها ؟

أسأل الله أن يعصمني وإياك من الزلل ومن خطل القول والعمل.





تمهيد

القرآن العظيم كلام الله عز وجل، تكلم به حقيقة على ما يليق بجلال قدره وعظيم سلطانه، وهذا الكلام منه ـ جل وعلا ـ نزل بلسان عربي مبين﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء، وقال سبحانه ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ يوسف، وقال: ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ فصلت، وقال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ الأحقاف.

والكلام في هذا اللسان العربي إنما هو بحرف وصوت، والحروف على نوعين:

◆ **حروف مباني**: أي يُبنى منها الكلام، وهي ليست لها معنى في نفسها، ولكن لها دلالة بعد التركيب، مثل: الميم من محمد، والعين من سعد، والراء من عمر ونحو ذلك، ولا علاقة لنا بها في هذه المباحث.

◆ **حروف معاني**: وهي التي تربط بين الكلمات لتعطي دلالة معينة يقصدها

المتحدث، مثل: دلالة حرف «الباء» على الاستعانة في كلمة « بسم الله»، ودلالة حرف «اللام» على التعليل في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴾، ودلالة حرف «على» على الظرفية في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ ... ﴾، وهذا المبحث لـه علاقة كبيرة جداً بموضوع الرسالة.

فحروف المباني تتكون منها الكلمات، وهذه الكلمات يُربط بينها بحروف المعاني فتتكون الجمل، والجمل مع بعضها يتكون منها الكلام التام.

كذلك الحال في كتاب الله ؛ فالآية تتكون من كلمات، وهذه الكلمات تربط بينها حروف المعاني فتتكون الجمل، والجمل مع بعضها تتكون منها الآيات.

وهذه الكلمات والحروف الرابطة والجُمَل والسياق قد اتصل بعضها ببعض على أكمل وجه، وأحكم عبارة، وأتمِّ معنى، لا اختلاف ولا تناقض ولا اضطراب، وإنما هو محكمٌ مبينٌ فرقان مثاني، يصدق بعضه بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر.

وقال تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ هود.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء.

جمعَ أنواع الإعجاز كلها، فهو معجز في نظمه، معجز في فصاحته، في حلاوة تكراره، في أخباره، في أسراره، في عقيدته، في دعوته، في تشريعه، في شفائه لأمراض الروح والبدن، في السكينة والطمأنينة والراحة والأنس به عند من يتلوه حق تلاوته، وغيرها كثير.

ولذا قال الله عز وجل – وهو يبين أن القرآن يحوي كل ما يحتاج إليه العباد مما

فيه صلاحهم في العاجل والآجل- : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ النحل.

أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في «شعب الإيمان» قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علمَ الأولين والآخرين»[١].

وقال أيضاً: «إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[٢].

قال شمر: تَثوِيرُ القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه[٣].

◆ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

« القرآن ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ فصلت، و هو كتاب ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴿١﴾﴾ هود، ولو أن رجلا من بني آدم له علم أو حكمة أو خطبة أو قصيدة أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك، وأتى فيه بمثل هذا التغاير؛ لعلم أنه قصد فى ذلك حكمة، و أنه لم يخالف بين الألفاظ مع إتحاد المعنى سُدى، فكيف بكلام رب العالمين و أحكم الحاكمين؟ لاسيما وقد قال فيه ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء »[٤].

١- إذا تبين هذا ؛ فلتفسير أي آيـةٍ من كتاب الله تعالى تفسيراً يتضح معه المعنى العظيم للآيــة [نظماً، وفهماً، وإعجازاً، ودلالة، وتربية] نحتاج إلى تجاوز

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٦٦، والبيهقي في «الشعب» ٢/ ٣٣١.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٣١.

(٣) ينظر: تفسير الفرطبي ١/ ٤٤٦.

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥١).

مراحل ثمانية:

المرحلة الأولى: الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ثم الصحابة وأئمة التابعين في الآيات، سواءً ما كان يتعلق بفضائل السور أو أسباب النزول أو التفسير.

المرحلة الثانية: إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنته بما جاء عن السلف، ثم الجمع بينهما لتحديد المعنى الكامل والصَّحيح للكلمة نفسها.

المرحلة الثالثة: معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات.

المرحلة الرابعة: معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها. [كدلالة الجملة الاسمية والفعلية، وأثر التقديم والتأخير ونحو ذلك] .

المرحلة الخامسة: فهم دلالة السِّياق [السِّباق واللَّحاق].

المرحلة السادسة: الإحاطة بالمقصود العام للسورة.

المرحلة السابعة: جمع الآيات الأخرى التي تنزَّلت في الموضوع نفسه من القرآن كلِّه، ليكتمل المعنى المراد للآية.

المرحلة الثامنة: العناية بتدوين أخبار وقَصص الأئمة سلفاً وخلفاً مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلِّها من التفسير. [وهذا مع عظيم فائدته إلا أنه من مُلح التفسير لا من متينه]

هذه المراحل كلها تدور حول علم التفسير وأدواته، وهذا العلم -علم التفسير- هو أوسع العلوم على الإطلاق، وهو في الظاهر من أسهل العلوم وأيسرها، فهو كما قيل: قصرٌ سوره من جريد، وأبواب غرفه من حديد.

وقبل البدء في صلب الموضوع، سأحصر المراجع الرئيسة التي نحتاج إليها في هذه المراحل، حتى لا تتشعب بنا الطرق في كتب اللغة والتفسير -وما أكثرها- فمن هذه الكتب:

٢- كتب التفسير بالمأثور: ومِن أجودها:

- تفسير الطبري (جامع البيان). وإن كان عسراً عليك فتفسير ابن كثير (طبعة البنَّا).

- تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

- التفسير الصحيح لـ د/ حكمت بن ياسين. (مع تشدد في تضعيف الآثار).

٣- كتب التفسير اللغوي البلاغي: ومن أجودها:

- تفسير البيضاوي، أو أبي السعود، أو ابن عطية.

- تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور.

مع الحذر من الزلات العقدية فيها، وسيأتي بيان كيفية التعامل معها بإذن الله.

٤- كتب تفسير تُعنى بالتربية والفوائد والمعنى العام: ومن أجودها:

- تفسير العلامة عبد الرحمن السَّعدي (تيسير الكريم الرحمن).

- أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري.

٥- كتب مساعدة مفيدة، منها:

- معجم حروف المعاني للقرآن الكريم لمحمد حسن شريف.

- مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، أوالصِّحاح للجوهري. وغيرها،،،

إن مداومة النظر في هذه الكتب مجتمعة يعين بشكل واضح على فهم كلام السلف، ويدرأ المرء عن وصمتين اثنتين:

الأولى: الاستهانة بكلام السلف في التفسير، لأنه سيدرك حينها أن العطب في فهمه لا في كلامهم.

الثانية: الفهم الناقص لكلامهم الذي اضطرَّ البعض ممن يعظم السلف أن يدافع دفاعاً ضعيفاً عن تفسيرهم، ولم يشعر أنه يدافع عن فهمه لا عن كلامهم.

وعلّة الوصمتين: أن الناظر في تفسيرهم - وإن فهم بعضها - إلا أنه لم يحط بكل ما قصدوه من المعاني لجهله بأساليب العرب في كلامها، فإذا استقر ذلك عنده اجتهد حتى يفهم تفسيرهم - مبناه ومغزاه -، ويعرف أصولهم وقواعدهم في الاستنباط، ثم إن بدا له - بعد ذلك - أن يجتهد فليجتهد سدد الله خطاه.



إذا تبين ما سبق ؛ فهذه هي المراحل:



المرحلة الأولى

الوقوف على الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ ثم الصحابة وأئمة التابعين في الآيات، سواءً ما كان يتعلق بفضائل السور أو أسباب النزول أو التفسير.

هذه هي المرحلة الأولى ولابد[1] فإن القرآن تنزيلُ رب العالمين، وهو كتاب

----

(١) من المفيد هنا أن أنقل لك كلاماً أصيلاً من محاضرة بعنوان «المنهجية في قراءة كتب أهل العلم» لمعالي الشيخ / صالح بن عبد العزيز آل الشيخ يقول فيها:

«.. من المهم لطالب العلم، قبل أنْ يقرأ في كتب التفسير بالرأي المحمود، مثل تفسير القرطبي، أو تفسير الألوسي أو تفسير كذا وكذا من الكتب، سواء كانت من مدرسة التفاسير الفقهية أو الموسوعية، قبل أنْ يقرأها لابدّ أنْ يطالع قول السلف في التفسير ، لِمَ ؟

لأنّه من المتقرر عند أهل العلم بعامة أنّه لا يجوز أنْ يعتقد أنّ صوابا في مسألة من مسائل التفسير يحجب عن الصحابة والتابعين، ويُدْرِكُ هذا الصواب من بعدهم؛ لأنّهم هم الذين نزل عليهم التنزيل، أعني الصحابة، فنقوله إلى من بعدهم، فكل تفسير يُضاد، -والحظ أنني أقول يُضاد ولا أقول يخالف- تفسير السلف فإنه قطعًا غلط؛ لأنّه لا يجوز أنْ يُعتقدَ أو يظنّ أنّ ثمة صوابا في التفسير يُحجب عن سلف هذه الأمة لأنه لا يجوز أنْ نقول أو نظن أنّ كلمة من القرآن جهلها الصحابة وأدركها من بعدهم، فسرها الصحابة بتفسير ويأتي المتأخر فيفسرها بتفسير=

عظيمٌ: ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ ص، وثقيلٌ: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ المزمل، بل بلغ الغاية في الإعجاز وشدة التأثير: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ ﴿٣١﴾ ﴾ الرعد، أي لكان هذا القرآن قاله قتادة والفراء وابن قتيبة وابن عطية وابن كثير والسَّعدي وغيرهم[(١)].

ولعظمة هذا الوحي المنزَّل تولى بيانه وحيٌ آخر معصوم هو الرسول ﷺ.

فإن قيل: ما الدليل على ذلك ؟

فالجواب أن ذلك في القرآن في قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ -يعني القرآن- ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴿٦٤﴾ ﴾ النحل.

فكانت حياته كلُّها قولاً وفعلاً وإقراراً من حين مبعثه إلى وفاته ﷺ بياناً لهذا القرآن.

يقول الإمام الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن[(٢)].

=مضاد له ويكون الصواب مع المتأخر هذا قطعا ممتنع .

ولهذا نقول من أساسيات قراءة كتب التفسير ؛ أنْ تبدأ بقراءة التفسير بالمأثور، قبل التفسير بالرأي، أنْ تطالع آثار السلف في الآية، قبل أنْ تنظر في اجتهادات المتأخرين التي تكون مبنية على العلوم المختلفة، النحو ومفردات اللغة وأصول الفقه إلى غير ذلك».

(١) يُنظر : زاد المسير ٤/ ٣٣٠ ، المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣ ، تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٦ ، تفسير السعدي : (٤١٨) وغيرها.

(٢) مقدمة في أصول التفسير :(٥٧).

وقد بيَّنه البيان التامَّ الذي لا لبس فيه ولا ريب كما ثبت عند أحمد وابن ماجه وغيرهما من حديث العرباض بن سارية قال ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ»، وعند أحمد وغيره من حديث أبي ذر: «لَقَدْ تَرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ وَمَا يَتَقَلَّبُ فِي السَّمَاءِ طَائِرٌ إلا ذكرنا لنا مِنْهُ عِلْمًا».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ النحل يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ العِلْمِ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلا يستشرحوه، فَكَيْفَ بِكَلامِ الله الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟[1].

يعني أنه بيّن لهم ما يُشكل أما البيِّن بنفسه فلا يحتاج إلى تبيين.

ولذا جعل الإمام الزركشي في البرهان[2] في الفصل الذي عقده لأمهات مآخذ التفسير جعل الأول من المآخذ هو: النقل عن رسول الله ﷺ، قال: وهذا هو الطراز الأول.

ثم قال: لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع فإنه كثير.

وتعقبه السيوطي في «الإتقان» فقال: الذي صح من ذلك -أي من النقل عن الرسول ﷺ في التفسير- قليل جداً، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة[3].

قال مُقَيِّدُه: مراد الإمام السيوطي النص على التفسير لا مطلق البيان، ومثله

----

(١) المقدمة في أصول التفسير ص (٤١).

(٢) ٢/ ١٥٦.

(٣) ٢/ ٤٧٣.

-أي الإمام السيوطي- لا يخفى عليه ما تقدم[1].

----

(١) يقول الشيخ محمد بازمول في كلام ماتع له :

فإن قيل : هذه دواوين السنة بين أيدينا لا يأتِي فيها تفسير القرآن آية آية، فكيف يكون الرسول ﷺ ما مات حتى بين للصحابة جميع القرآن ؟

فالجواب : ما مات ﷺ حتى بين للصحابة جميع القرآن ، ولكن البيان يكون على طُرق؛

فالطريق الأول : البيان المباشر، كأن يقول ﷺ : (الكوثر : نهر أعطاني الله إياه في الجنة) [الترمذي:٢٥٤٢]، فهذا تفسير مباشر عن الرسول ﷺ لكلمة (الكوثر): (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) (الكوثر:١)، ومنه تفسير الظلم في قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)(الأنعام: من الآية٨٢)، حيث جاء جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله ﷺ عند نزول الآية، وقالوا: يا رسول الله وأينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ ما منا إلا وقد ظلم، من الذي لم يلبس إيمانه بظلم ؟ ففسر لهم الرسول ﷺ الظلم المراد في الآية فقال عليه الصلاة والسلام : (ألم تقرأوا قول الرجل الصالح : (يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(لقمان: من الآية١٣)) [البخاري ومسلم]، فبين ﷺ أن المراد بالظلم هو : الشرك، فمعنى الآية: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك ، هذا هو المقصود. هذا النوع الأول من البيان، وهو قليل في الأحاديث.

والطريق الثاني : بيان الرسول ﷺ للقرآن الكريم، بالتطبيق العملي في حياة المسلمين في زمنه، فهو ﷺ وحينما علَّم الناس الصلاة ؛ فسر لهم معنى قوله تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ) (البقرة: من الآية٤٣)، هو ﷺ حينما بين للناس أحكام الزكاة ؛ فسر لهم عملياً أحكام الزكاة ، وحينما صلى بالناس في مواقيت الصلوات الخمس ؛ بين لهم معنى قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ) (هود: من الآية١١٤) ومعنى قوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (الاسراء:٧٨)، وحينما أقام حد الزنى؛ بين تطبيقاً معنى هذا الزنى ، وحينما أقام حد السرقة ؛ بين تطبيقاً معنى حد السرقة الوارد في القرآن، ومن اقتصر على الطريق الأول في بيان الرسول ﷺ للقرآن يفوته شيء كثير، إذ إن هذا النوع الثاني أكثر من النوع الأول.

الطريق الثالث : من طرق بيان الرسول وتفسيره للقرآن الكريم: هو ما كان يتخلق به ﷺ في نفسه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلقه ﷺ: (كان خلقه القرآن). فالرسول ﷺ كان في خلقه في معاملته في نفسه عليه الصلاة والسلام مفسراً ومطبقاً للقرآن الكريم .

إن رسول الله ﷺ فسر جميع القرآن بقوله وفعله وتقريره . (شرحه لمقدمة شيخ الإسلام ص٢٢).

فإن خفي علينا تفسيره ﷺ للقرآن ؛ أخذنا بما جاء عن صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

فإن قيل: ما الدليل على ذلك ؟

فالجواب أن ذلك في القرآن والسنة:

ففي القرآن أثنى الله عليهم كثيراً كما في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ الفتح، وقوله: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ الفتح:١٨، وقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ التوبة، وغيرها من الآيات.

وفي السُّنة ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيه قَالَ ﷺ: النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ[(١)].

وفي الصحيحين عن عِمْرَانَ بْن حُصَيْن قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ . قَالَ عِمْرَانُ : فَلا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاثًا[(٢)]؟

والأحاديث في هذا الباب متواترة بل في أعلى درجات التواتر.

----

(١) مسلم (٢٥٣١).

(٢) البخاري (٢٥٠٨)، مسلم (٢٥٣٥).

فإن قيل: هذه النصوص تدل على الفضل لا على العلم بالقرآن!

فالجواب: أن العلم الحقَّ بالقرآن هو رأس الفضائل، فمن أدركه سبق سَبقاً عظيماً، ومن فاته سُبِـق سبقاً بعيداً.

فإن قيل: لكن هذه النصوص تدل على أفضليتهم في علم القرآن بالجملة لا بالأعيان!

قيل: وهذا هو المراد، فلا يكون الحق أبداً مناقضاً لقولهم جميعاً، موافقاً لقول غيرهم، فكل قولٍ يُناقض أقوالهم جميعاً فهو باطل قطعاً.

ثم – عقلاً – لا شك أن من عاصر نزول الوحي، وعاصر من نزل عليه الوحي، وعاصر خير من فسر وطبّق الوحي – وهو خاتم المرسلين ﷺ – أعرف بمقصود كتاب الله وتفسير ما جاء به من غيره ممن بَعُدَ عهده عن زمن التنزيل.

ويكفي أن الله اختارهم لصحبة نبيه، وفي الأثر المشهور عن ابن مسعود: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم[1].

بل إن الحاكم في مستدركه جعل تفسير الصحابي عند الشيخين البخاري ومسلم بمنزلة الحديث المرفوع[2].

----

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٨٥ .

(٢) يقول في المستدرك (٢/ ٢٨٣): ليعلم طالب العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند.

يقول ابن أبي حاتم: فإن قيل كيف السبيل إلى معرفة ما ذكرت من معاني كتاب الله عز وجل ومعالم دينه ؟ قيل: بالآثار الصحيحة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه النجباء الألباء الذين شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل رضي الله عنهم[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وَحِينَئِذٍ إذَا لَمْ نَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلا فِي السُّنَّةِ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالأَحْوَالِ الَّتِي اخْتَصُّوا بِهَا؛ وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ؛ لا سِيَّمَا عُلَمَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ كَالأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ[2].

وأَعْلَمُ الأمةِ بعد الخلفاء الأربعة بتفسير كتاب الله هم: ابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم.

◆ تفسير التابعين:

فإن اختلفوا أو لم يُنقل عن الصحابة في الباب شيء ؛ فدونك من أخذوا عنهم من أئمة التابعين، فهم تلامذتهم وأعلم الناس بما جاء عنهم.

وهم داخلون في الحديث المتقدم المتواتر عن رسول الله ﷺ: خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ .

وهم يفهمون الكلام العربي بصرفه ونحوه وبلاغته سليقةً دون تكلُّف.

----

(١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢، ٥.

(٢) المقدمة أصول في التفسير ص: (٥٩) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته المشهورة في التفسير:

«إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلا فِي السُّنَّةِ وَلا وَجَدْته عَنِ الصَّحَابَةِ فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ فِي ذَلِك إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ:

كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً فِي التَّفْسِيرِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ ابْنُ صَالِحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلاثَ عرضات مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا... وعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: رَأَيْت مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ أَلْوَاحُهُ قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ اُكْتُبْ حَتَّى سَأَلَهُ عَنْ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ .

وَلِهَذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ.

وَكَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

وَعِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ.

وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

وَمَسْرُوقِ بْنِ الْأَجْدَعِ.

وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ.

وَأَبِي الْعَالِيَةِ.

وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ.

وقتادة.

وَالضَّحَاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ.

وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ»[1].

◆ **فهاتان الطبقتان هم أعلم الأمة بتفسير كلام الله عز وجل بعد رسول الله ﷺ، فما اتفقوا عليه فهو حجة، وما اختلفوا فيه لم يخرج الحق عن أقوالهم.**

ثم قال رحمه الله: «فَإِنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ وَالأَئِمَّةَ إِذَا كَانَ لَهُمْ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ قَوْلٌ وَجَاءَ قَوْمٌ فَسَّرُوا الآيَةَ بِقَوْلٍ آخَرَ لأَجْلِ مَذْهَبٍ اعْتَقَدُوهُ، وَذَلِكَ المَذْهَبُ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، صَارُوا مُشَارِكِينَ لِلْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي مِثْلِ هَذَا، و فِي الْجُمْلَةِ مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ بَلْ مُبْتَدِعًا وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ»[2].

قال السيوطي في «الإتقان» -بعد نقله للنص السابق-: انتهى كلام ابن تيمية ملخصاً وهو نفيس جداً[3].

فإن قال قائل: فما لم نجده عن الصحابة والتابعين فما حكمه، أَكُلُّ ما لم يأت عنهم في التفسير يكون باطلاً ؟

قيل: ما ناقض أقوالهم هو الباطل، أما ما سكتوا عنه؛ فما وافق أصولهم فهو حق،

----

(١) مقدمة في أصول التفسير: (٦٦).

(٢) المصدر السابق:(٥٤).

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٤٧٣.

وما خالفها فباطل، وما زال أهل العلم من الصحابة إلى زمننا هذا يأتي المتأخر بما لم يأت به المتقدم فما يُعاب عليه ذلك، بل ما وافق الحق قُبل وما خالفه رُدَّ.

فإن قلتَ: فما أصولهم في التفسير ؟

قلتُ: من أجل ذلك كانت هذه الرسالة نفعني الله وإياك بها.



(فصل)

ما جاء عن رسول الله ﷺ أو الصحابة والتابعين في التفسير يكون على ثلاثة أنواع:

◆ **النوع الأول: ما ورد في فضائل الآيات أو السور.**

الوقوف على ما ورد في فضائل الآية أو السورة التي يُراد تفسيرها من الأهمية بمكان لأنه يُبـين لك عن قدْرِها عند الذي أنزلها، فليست أم القرآن كغيرها، ولا السورة التي تعدل ثلث القرآن كالسورة التي لم يرد فضل خاص بها.

ولذا قلما مصنَّف جامع للأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة إلا ويكون من أبوابه كتابٌ أو أبوابٌ في فضائل القرآن وسوره، فالبخاري في الصحيح وضع كتاباً كاملاً في «فضائل القرآن»، وكذا مسلم في صحيحه وضع أبواباً في «فضائل القرآن» لكنه في المطبوع ضُمِّن في كتاب «صلاة المسافرين»، وكذا الترمذي وضع كتاباً كاملاً

في «فضائل القرآن»، وغيرهم كثير.

وكذا من صنَّف في التفسير بالمأثور يذكرون مع تفسير كل سورة ما ورد في فضلها كابن جرير والبغوي وابن كثير وغيرهم، وللسيوطي كتاب حافل جامع أسماه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، بل هناك مصنفات كثيرة مستقلة في الباب[1]، لكن فيما ذكروه يوجد الصحيح والضعيف، ومن أجود المصنفات جمعاً وتحقيقاً:

١) «موسوعة فضائل سور وآيات القرآن» للشيخ / محمد بن رزق بن طرهوني، وهو كتاب مفيد.

٢) «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم» (دراسة ونقد) لـ د. إبراهيم علي السيد. وأصله رسالة دكتوراه ثم طُبعت، وهو كافٍ في الباب.

وأجود ما وقفت عليه في الباب هو هذا الأخير، لأنه توسط في حكمه على الأحاديث والآثار في باب الفضائل، فلم يتساهل في الموضوعات والمناكير لأنها في الفضائل كحال كثير من المتقدمين ممن ليس من أهل التمييز بين المطروح والمقبول.

----

(١) منها:

(أ) «فضائل القرآن» للفريابي جعفر بن محمد. مطبوع.

(ب) «فضائل القرآن» لأبي عبيد القاسم بن سلام. مطبوع.

(ج) «فضائل القرآن» لابن كثير. مطبوع عدة طبعات.

(د) «فضائل القرآن العظيم»: للضياء المقدسي. مطبوع.

(هـ) «لمحات الأنوار ونفحات الأزهار وريِّ الظمآن لمعرفة ما ورد من الآثار في ثواب قاريء القرآن» للغافقي. مطبوع وهو كتاب كبير لكنه جمع ولم يفتش.

وأيضاً لم يتشدد كحال كثير ممن يشتغل بعلم التصحيح والتضعيف في هذا الزمان، ممن خالف طريقة أئمة المحدثين فأمر بطرح كل حديث ضعيف والاكتفاء بالصحيح أو الحسن، وزعم أن هذا هو المتعين لاغير، ولم يُفرِّق بين الوارد في الفضائل والوارد في المسائل من الحلال والحرام، فأداه هذا إلى تغليط منهجهم أو مخالفة طريقتهم في هذا الفن الدقيق، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة قريباً بإذن الله.

ومع جودة هذا الكتاب وجليل فائدته ؛ إلا أنه يؤخذ على المؤلف -وفقه الله- طريقته في دراسة أحوال الرجال، فإنه ينقل أقوال الأئمة في الراوي ويمر عليها مروراً عجلاً ثم يحكم بما بدا له، ولا يدرسها دراسة فقيهٍ بهذا الفن عالمٍ بدقائقه. والله أعلم

◆ النوع الثاني: ما ورد في أسباب النزول.

سبب النزول: هو ما نزلت الآية من أجله، شريطة أن تكون في زمن وقوعه.

وهذا الشرط ذكره السيوطي[١] حتى لا يُقال -مثلاً- إن حادثة الفيل سبب لنزول سورة الفيل، مع أن السورة نزلت من أجل التذكير بها.

ويُقصد به: ذِكْرُ الحوادث والقضايا التي صاحبت نزول القرآن الكريم مكانيةً كانت أو زمانية أو حالية أو عينية.

وقد تتابع المفسرون على أهمية الوقوف عليه:

قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

----

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٩٤.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

ومن فوائده أنه يعين على معرفة وجه الحكمة الباعثة على التشريع وهذه فائدة عزيزة يحتاجها الفقيه كثيراً،وله فوائد أخرى مبسوطة في كتب علوم القرآن فتُنظر في مظانها[1].

المصنفات فيه: وقد أفرده بالتصنيف جماعة أقدمهم ابن المديني شيخ البخاري والواحدي وغيرهما، ومن أجود المصنفات في الباب:

----

(١) يقول شيخنا العلامة ابن عثيمين –رحمه الله–:

معرفة أسباب النزول مهمة جدًّا، لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة منها:

١– بيان أن القران نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانا، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع فينزل الوحي مبيناً له....

٢– بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ في الدفاع عنه مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾** ﴾ الفرقان.

٣– بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم. مثال ذلك آية التيمم....

٤– فهم الآية على الوجه الصحيح . مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ** ﴾ البقرة: الآية ١٥٨، أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: ﴿ **فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ** ﴾ البقرة: الآية ١٥٨، أن غاية أمر السعي بينهما أن يكون من قسم المباح، وفي «صحيح البخاري» (١٠) عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ** ﴾ البقرة: الآية ١٥٨ إلى قوله: ﴿ **أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾ البقرة: الآية ١٥٨. وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿ **مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ** ﴾ البقرة: الآية ١٥٨. اهـ

١) «العجاب في بيان الأسباب» للحافظ ابن حجر ولم يُكمله، وقد طُبع مراراً.

٢) «لُباب النقول في أسباب النزول» للإمام السيوطي، وقد طُبع مراراً.

٣) «الصحيح المسند من أسباب النزول» لعلاَّمة اليمن الشيخ / مقبل الوادعي، وهو كتاب مفيد لطيف الحجم، طُبع قديماً.

◆ النوع الثالث: التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأئمة التابعين.

الناظر في التفسير بالمأثور ينبغي أن يقف على أمرين اثنين:

الأمر الأول: النظر في طُرق روايته.

الأمر الثاني: النظر في فهم درايته.

أما الأول: وهو النظر في طُرق روايته.

فإن للتفسير طُرقاً مشهورة معتبرة عند أئمة المفسرين بالأثر، وقد نظمها الشيخ محمد ابن محمد عبد الله المامي اليعقوبي في منظومته «أشهر طرق التفسير» وأولها:

الحمـــد لله الـــذي قــد مهّـــدا ★★★ لنـــا الطريق المستقيـــم وهَدَى

صلّى على من قد روى عنه السلفْ ★★★ «يحمل هذا الدين من كل خلفْ»

وأستـعينُـه علـــى تـيسيـــر ★★★ نظـمٍ لبعض طـرق التـفسيـــرِ

عمّنْ به مـــن الصـحابـة اشتهـرْ ★★★ لكـي يكـون ناظـراً على بصـرْ

ثم ساق الطرق نظماً، وقد استقصى المشهور منها الشيخ محمد الأمين في بحثه

«تخريج أسانيد التفسير الشهيرة والحكم عليها»[1]، وهو بحث جامع مفيد جداً لكنه بالغ في التضعيف حتى أنه لم يصح عنده من تفسير الحبر البحر تُرجمان القرآن عبدالله ابن عباس إلا القليل[2]، وهذا أمر يُدرك كلُّ لبيبٍ بطلانه بأدنى تأمل، وإلا فكبِّر على التفسير بالمأثور بل وعلى أئمته أربعاً.

◆◆ وينبغي في هذا المبحث أن يُعلم أن الآثار الواردة في التفسير على نوعين:

◆ النوع الأول: آثارٌ يُراد إثباتُ عمومِ معناها لا دقائق ألفاظها.

وهذا هو الأغلب في متون التفسير، وما عداه قليل جداً إذا ما قُرن بقسيمه، ومثل هذه الآثار يتوسع أئمة المحدثين ــ رحمهم الله ــ في قبولها، ويغضون الطَّرف عن الضعف اليسير فيها، والأصل فيها عندهم اعتبارها والاستشهاد بها ما لم يكن فيها ما يُستنكر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَنْقُولَ فِي التَّفْسِيرِ أَكْثَرُهُ كَالْمَنْقُولِ فِي الْمَغَازِي وَالْمَلاحِمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: ثَلاثَةُ أُمُور لَيْسَ لَهَا إسْنَادٌ: التَّفْسِيرُ وَالْمَلاحِمُ وَالْمَغَازِي، وَيُرْوَى: لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ أَيْ إسْنَادٌ؛ لأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا الْمَرَاسِيلُ مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَالشَّعْبِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَابْنُ إسْحَاقَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَيَحْيَى بْنِ سَعِيدِ الأُمَوِيِّ وَالْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِم والواقدي وَنَحْوِهِمْ فِي الْمَغَازِي... وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ يُعْلَمُ صِدْقُ عَامَّةِ مَا تَتَعَدَّدُ جِهَاتُهُ الْمُخْتَلِفَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ



(١) وقد نشر في موقع «ملتقى أهل التفسير» بنفس مسمى البحث.

(٢) يقول في بحثه هذا: «ومن الملاحظ أن عامة ما يُروى عن ابن عباس في التفسير ضعيف كما ترى».

مِنْ الْمَنْقُولاتِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهَا كَافِيًا إِمَّا لإِرْسَالِهِ وَإِمَّا لِضَعْفِ نَاقِلِهِ ؛ لَكِنْ مِثْلُ هَذَا لا تُضْبَطُ بِهِ الأَلْفَاظُ وَالدَّقَائِقُ الَّتِي لا تُعْلَمُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ، فَلا يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَى طَرِيقٍ يَثْبُتُ بِهَا مِثْلُ تِلْكَ الأَلْفَاظِ وَالدَّقَائِقِ[٣].

ويقول في «نقض التأسيس» -في معرض كلامه عن رواية علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس-: وأما ثبوت ألفاظه عن ابن عباس ففيها نظر... بل نقل هؤلاء شبيه بنقل أهل المغازي والسِّيَر، وهو مما يُستشهدُ به ويُعتبَرُ به، وبضم بعضه إلى بعض يصير حجة، وأما ثبوت شيءٍ بمجرد هذا النقل عن ابن عباس، فهذا لايكون عند أهل المعرفة بالمنقولات[٤].

وقد كنت وعدت سابقاً بمزيد البسط حول مسألة تشدد كثير ممن يشتغل بعلم التصحيح والتضعيف في هذا العصر في دراسة أسانيد التفسير، وأدى بهم هذا إلى الأمر بطرح كل حديث ضعيف والاكتفاء -في زعمهم- بالصحيح أو الحسن، فلم يُفرِّقوا بين الوارد في الفضائل والوارد في المسائل من الحلال والحرام، ولم يفرقوا بين إثبات عموم المعنى وإثبات دقائق الألفاظ، ولا بين ما فيه نكارة وما ليس كذلك.

وزعموا أن هذا هو المتعين لا غير، فأدَّاهم هذا إلى تغليط منهج أئمة المحدثين ومخالفة طريقتهم في هذا الفن الدقيق، أو تأويل كلامهم وفعالهم بتأويلات بعيدة مستنكرة، ثم وقفت على أن هناك رسالة علمية سُجلت في هذا الموضوع[٥]، لذا

----

(١) مقدمة في أصول التفسير(٣٥-٣٧) باختصار، وهو في مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٤٨.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ٣/ ٤١-٤٣

(٣) وهي في جامعة أم القرى بإشراف فضيلة الشيخ د. حاتم العوني.

سأختصر الكلام وأذكر خلاصة ما وقفت عليه في هذه المسألة[1]، وهو أن الناظر في كتب أئمة المفسرين بالأثر سيظهر له من منهجهم ما يلي:

١ - أنك لا تكاد تجد مفسرًا من أئمة المفسرين بالأثر طرح جملة من هذه الروايات بالكلية، بل قد يطرح أحدها لرأيه بعدم صحة الاعتماد عليها، ومن أشهر الروايات التي يُمثَّل بها هنا رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وعطيَّة العوفي، وشبهها التي تعود أسباب ضعفها إلى سوء الحفظ ونحو ذلك، أو كتفسير الضحاك وعلي بن أبي طلحة والتي تعود أسباب ضعفها إلى الانقطاع وما في معناه.

وهذا مما يبين أنهم اعتمدوا اعتمادًا واضحًا على هذه المرويات، سواءً أكانوا من المحررين فيه كالإمام الطبري وابن أبي حاتم، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير، وغيرهم أم كانوا من نَقَلَةِ التفسير كعبد بن حميد وابن المنذر.

وهؤلاء قد أطبقوا على روايتها بلا نكير، مع علمهم التام بما فيها من الضعف.

وليس من الصواب -فيما أرى- قول من قال: إن منهج الإمام الطبري في هذه الروايات الإسناد، وإن من منهجه الصحة اعتمادًا على قاعدة من أسند فقد أحالك.

ففي هذه المقولة غفلة واضحة عن منهج الإمام الطبري الذي اعتمد على هذه المرويات في بيان معاني كلام الله، وفي الترجيح بين أقوال المفسرين، ولم يتأخر عن

---

(١) ومن أجود ما وقفت عليه في هذه المسالة مقال لـشيخي فضيلة الشيخ د. مساعد الطيار بعنوان «أسانيد التفسير» ثم تعقبات للشيخ عبد الله الجديع على المقال، وقد نشرا جميعاً في موقع «ملتقى أهل التفسير».

ذلك إلا في مواضع قليلة جدًّا لا تمثِّل منهجًا له في نقد أسانيد التفسير، أعني أنَّ الصبغة العامة رواية هذه الآثار والاعتماد عليها في بيان كلام الله.

وقس على الإمام الطبري غيره من المفسرين الذين اعتمدوا هذه المرويات في التفسير.

وذلك أن العبرة عندهم بالمعاني ودلالاتها، لذا فإنه يقبل المعنى الصحيح وإن كان الناقل ضعيفاً ؛ لذا فربما رجح الرأي المنقول بالإسناد الضعيف على الرأي المنقول بالإسنادِ الصحيح .والمقصود: أن الإسناد بالنسبة له كان غير معني أصلاً بالنظر والتحقيق.

٢ – أنَّ أئمة المحدثين لهم كلام واضح بيِّن في قبول هذه الروايات واحتمالها والاعتماد عليها ؛ لأنهم يفرقون بين أسانيد الحلال والحرام وأسانيد غيرها من حيث التشديد والتساهل، ونصوصهم في ذلك واضحة، ومن ذلك:

قال يحيى القطان –فيما رواه البيهقي–: تساهلوا في التفسير عن قومٍ لا يوثِّقونهم في الحديث، ثمَّ ذكر ليث بن أبي سليم، وجويبر بن سعيد، والضحاك، ومحمد بن السائب؛ يعني: الكلبي، وقال: هؤلاء لا يحمد حديثهم، ويكتب التفسير عنهم[1].

٣ – ولعلَّ مما يبيح تساهل التعامل مع أسانيد المفسرين من جهة الإسناد أن كثيرًا من روايات التفسير روايات كتبٍ، وليست روايات تلقين وحفظٍ ؛ لأنك لا تكاد تجد اختلافًا بين ما رواه نقلة هذه المرويات بهذه الأسانيد.

----

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٥، وسيأتي بعد قليل تعليق الإمام البيهقي علي كلمة يحي القطان هذه.

ولذا تجدهم ينسبون التفسير إلى من رواه مدوَّنًا كتفسير عطية العوفي عن ابن عباس، وتفسير السدي عن بعض أشياخه، وتفسير قتادة الذي يرويه سعيد بن أبي عروبة ومعمر بن راشد، وتفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرها من صحف التفسير.

وإذا كان كثير من هذه الروايات رواية لكتاب فإن هذا يجعلها صالحة للاعتمادِ، أو الاستئناسِ بها من حيث الجملةُ.

٤ - إن من تشدد في نقد أسانيد التفسير، فإن النتيجة التي سيصل إليها أنَّ كثيرًا من روايات التفسير ضعيفة، فإذا اعتمد الصحيح واطَّرح الضعيف فإن الحصيلة أننا لا نجد للسلف إلا تفسيرًا قليلاً، وهم العمدة في هذا الباب، فإذا كان ذلك كذلك فمن أين يؤخذ التفسير بعدهم ؟!

٥ - إن التفسير له مقاييس يعرف بها عدا مقاييس الجرح والتعديل، إذ التفسير يرتبط ببيان المعنى، وإدراك المعنى يحصل من غير جهة الحكم على الإسناد، لذا فإن عرض التفسير على مجموعة من الأصول تبين صحيحه من ضعيفة، كالنظر في السياق والنظر في اللغة، والنظر في عادات القرآن والنظر في السنة... إلخ.

فمن المتقرر عند جميع أهل الفنون أن طبيعة العلوم تختلف، فإثبات السنة النبوية، وإلزام الناس بها ليس كإثبات اللغة، فاللغة تثبت بما لا يثبت به الحديث، وكذا الحال في التفسير، فإنه يثبت بما لا يثبت به الحديث، والاعتماد على هذه الروايات جزءٌ أصيل من منهجه لا ينفكُّ عنه، ومن اطَّرحها فقد مسخ علم التفسير.

وقد أشار البيهقي إلى هذا الملحظ فقال -تعليقاً علي كلمة الإمام يحي القطان

الآنفة الذكر-: وإنما تساهلوا في أخذ التفسير عنهم لأن ما فسروا به ألفاظه تشهد لهم به لغات العرب، وإنما عملهم في ذلك الجمع والتقريب فقط.

ومن قرأ في كتب التفسير ومارس تدريسه أدرك هذا المعنى، وإلا لرأيته يقف كثيرًا حتى يتبين له صحة هذه المرويات ليعتمد عليها، وفي هذه الحال أنَّى له أن يفسِّر.

وهذا دليل على أن القبول عندما وقع فلمعنى لا يؤثر فيه جرح الناقل، كموافقة لأصل اللسان مثلاً، أو موافقة للدلالات العامة للقرآن، أو لمقاصد الدين، أو لكلام آخرين وبيانهم من المفسرين، فهو معتضد بغيره، ولذا ربما رده في حال أخرى.

فالحاصل أنه لابد من التفريق بين الاعتماد التام على منهج أهل الحديث في نقد الروايات وبين الاستفادة منه، فالصحيح أن يُستفاد منه، ويأتي وجه ذلك في حالات معينة ؛ كأن يكون في التفسير المروي غرابة أو نكارة وشذوذاً ظاهراً.

ومن أمثلة ذلك ما تراه من فعل الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (المائدة: ٥٥) حيث تتبع أسانيد المرويات ونقدها، لكنك تجده في مواطن أخرى يرويها ولا ينقدها، وما ذاك إلا لما في الخبر المنقول في هذه الآية من النكارة التي جعلته يتتبع الإسناد، أما في غيرها فالأمر محتمل من جهة المعنى وليس فيها ما ينكر فقبله، والله أعلم(١).

----

(١) وهذه النقاط التسع هي مجموع ما ارتضيته في هذه المسألة من الأجوبة السابقة، وأغلبه من إجابة الدكتور/ مساعد الطيار.

◆◆ وللفائدة أذكر جملة يسيرة من أشهر أسانيد التفسير:

أ- عن ابن مسعود:

١) ما رواه عنه أكابر تلامذته: كعلقمة والأسود بن يزيد ومسروق والشعبي والحسن البصري وأبي وائل، و عبيدة بن عمرو السلماني، والربيع بن خثيم، وأبي الأحوص عوف بن مالك، ومرة الطيب، وآخرين. وكل هؤلاء ثقات أثبات.

٢) ما أرسله عنه إبراهيم النخعي وهو لا يرسل عنه إلا ما سمعه من غير واحد من أصحاب ابن مسعود، فهو إسناد صحيح ما لم يكن فيه نكارة.

ب- عن أُبَيّ بن كعب:

له نسخة كبيرة مشهورة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه. وأبوجعفر فيه ضعف لكن يُحتمل في النُّسَخ ملا يُحتمل في غيرها.

ج- عن ابن عباس: وله طُرق عِدة من أشهرها:

٣) طريق أبي صالح عبد الله بن صالح كاتب الليث، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وهي صحيفة علي بن أبي طلحة الهاشمي، التي رواها عن عبد الله بن صالح جمعٌ غفير من أئمة أهل الحديث.

وقد أثنى عليها واعتبر بها جمع من الأئمة كأحمد والبخاري وابن أبي حاتم، والطحاوي، وابن جرير، وأبي جعفر النحاس، والمزي، والذهبي، وابن حجر، وابن كثير، وابن الوزير، والسيوطي، وغيرهم.

لكن ينبه شيخ الإسلام -في معرض كلامه عن رواية علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس- في «نقض التأسيس» فيقول: «... وأما ثبوت ألفاظه عن ابن عباس

ففيها نظر، لأن الوالبي لم يسمعه من ابن عباس ولم يدركه بل هو منقطع، وإنما أخذ عن أصحابه... وليست تلك ألفاظهم بعينها، بل نقل هؤلاء شبيه بنقل أهل المغازي والسِّيَر، وهو مما يُستشهدُ به ويُعتبَرُ به، وبضم بعضه إلى بعض يصير حجة، وأما ثبوت شيءٍ بمجرد هذا النقل عن ابن عباس، فهذا لايكون عند أهل المعرفة بالمنقولات[1].

٤) طريق قيس بن مسلم الجدلي الكوفي، عن عطاء بن السائب بن مالك الكوفي، عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة عن ابن عباس. وهي طريق جيدة.

٥) طريق أبي معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهو صحيح.

هذه أمثلة لأشهر طُرق التفسير.

◆ **النوع الثاني: آثارٌ في التفسير يُراد الاحتجاج بها أو إثباتُ دقائق ألفاظها.**

وهذه لابد من تمحيصها وفحصها على طريقة أئمة المحدثين ولابد أن تدخل في تنُّور علم العلل، لكنها ليست بكثرة النوع الأول بل ولا تُقارب، ومن أمثلتها:

١) قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المائدة ، فقد جاءت ألفاظ مختلفة عن ابن عباس في تفسير الآية فمن أراد أن يقف على الألفاظ الثابتة عنه ؛ فلابد من فحصٍ وتمحيص.

ومن أراد أن يقف على عموم المعنى الثابت عنه، وهو أن مجرد فعل الحكم بغير ما أنزل الله كفر لا ينقل عن الملة ؛ فيسعه النظر في كثرة الطرق الواردة عنه التي في

----

(١) سبق في ص: (٣٢).

هذا المعنى، وإن لم يتيقن أي الألفاظ الثابتة عنه.

٢) قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأحزاب.

فقد جاءت ألفاظ عن ابن عباس في تفسير الآية، منها:ما أخرجه الطبري من طريق علي -يعني ابن أبي طلحة- عن ابن عباس قال: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة.

وهذا مخالف للمشهور عن ابن عباس في تفسير الآية، وجاءت ألفاظ أخرى عنه -أيضاً- مشكلة من جهة معناها، فمن أراد الألفاظ فليفحص الطُرُق.

٣) قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ النور .

جاء في بعض الروايات عن ابن عباس قال: الزينة التي يبدينها لهؤلاء: قرطاها وقلادتها وسوارها، فأما خلخالاها ومعضداها ونحرها وشعرها، فإنه لا تبديه إلا لزوجها.

ومعناها أنه لا يجوز للمرأة أن تبدي شعر رأسها أمام أولادها، وهذا مُشكل.

وفي الباب أمثلة أخرى أدعها خشية الإطالة، فهذه الروايات ونحوها تحتاج إلى دراسة حديثية متأنية، بخلاف ما تقدم فإن الأمر فيها أيسر، والله أعلم.

◆ الأمر الثاني: النظر في فهم درايته.

وهذا هو المقصود في المراحل السَّبعة المتبقية، لكني أشير هنا إلى مسألتين جليلتين:

◆ المسألة الأولى: أهمية الإحاطة بأقوال السلف في الآية المفسَّرة.

إن من أراد الإطلاع على حقيقة قول السلف في الآية فلا بد أن يقف على مجموع ما جاء عنهم أو أغلبه؛ حتى يتبين له المعنى الكلِّي للآية عندهم، وحتى لا يقع في خطأ الفهم الجزئي للآية، وهذا الخطأ وقع فيه بعض من اعتمد التفسير بالمأثور من المعاصرين، ولم يكتفوا بذلك بل نسبوا ذلك إلى السلف رحمهم الله.

وتتجلى أهمية العناية بجمع أقوال السلف في الآية في أن اختلاف السلف في فهم معاني القرآن قليل، وما تراه في كتب التفسير بالمأثور من كثرة الأقوال التي ظاهرها الاختلاف، إنما هو في أغلبه اختلاف تنوع لا تضاد، كما هو ظاهر بأدنى تأمل.

يقول الإمام الزركشي في «البرهان» في كلام متينٍ له: تنبيه: (فيما يجب أن يلاحظ عند نقل أقوال المفسرين):

يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحيكه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظن من لا فهم عنده أن في ذلك اختلافًا فيحكيه أقوالًا، وليس كذلك بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر له من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل، وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالباً والمراد الجميع، فليُتفطن لذلك ولا يُفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات كما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ★★★ وكل إلى ذاك الجمال يُشير» [١]

----

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٦٠.

ويقول شيخ الإسلام في مقدمته المشهورة في التفسير:

« الْخِلافُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيلٌ وَخِلافُهُمْ فِي الأَحْكَامِ أَكْثَرُ مِنْ خِلافِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ، وَغَالِبُ مَا يَصِحُّ عَنْهُمْ مِنَ الْخِلافِ يَرْجِعُ إِلَى اخْتِلافِ تَنَوُّعٍ لا اخْتِلافِ تَضَادٍّ وَذَلِكَ صِنْفَانِ:

«أَحَدُهُمَا»: أَنْ يُعَبِّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرِ عِبَارَةِ صَاحِبِهِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى فِي الْمُسَمَّى غَيْرِ الْمَعْنَى الآخَرِ، مَعَ اتِّحَادِ الْمُسَمَّى بِمَنْزِلَةِ الأَسْمَاءِ الْمُتَكَافِئَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَرَادِفَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ.

كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ السَّيْفِ: الصَّارِمُ وَالْمُهَنَّدُ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى وَأَسْمَاءِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم وَأَسْمَاءِ الْقُرْآنِ...

«الصِّنْفُ الثَّانِي»: أَنْ يَذْكُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الاسْمِ الْعَامِّ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، وَتَنْبِيهِ الْمُسْتَمِعِ عَلَى النَّوْعِ، لا عَلَى سَبِيلِ الْحَدِّ الْمُطَابِقِ لِلْمَحْدُودِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ.

مِثْلَ سَائِلٍ أَعْجَمِيٍّ سَأَلَ عَنْ مُسَمَّى «لَفْظِ الْخُبْزِ» فَأُرِيَ رَغِيفًا وَقِيلَ لَهُ: هَذَا فَالإِشَارَةُ إِلَى نَوْعِ هَذَا لا إِلَى هَذَا الرَّغِيفِ وَحْدَهُ.

٤) مِثَالُ ذَلِكَ مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴿٣٢﴾ ﴾ فاطر... كَقَوْلِ الْقَائِلِ: السَّابِقُ الَّذِي يُصَلِّي فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي يُصَلِّي فِي أَثْنَائِهِ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ الَّذِي يُؤَخِّرُ الْعَصْرَ إِلَى الاصْفِرَارِ.

وَيَقُولُ [الآخَرُ]: السَّابِقُ وَالْمُقْتَصِدُ وَالظَّالِمُ قَدْ ذَكَرَهُمْ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهُ

ذَكَرَ الْمُحْسِنَ بِالصَّدَقَةِ، وَالظَّالِمَ بِأَكْلِ الرِّبَا، وَالْعَادِلَ بِالْبَيْعِ وَالنَّاسُ فِي الأَمْوَالِ: إِمَّا مُحْسِنٌ وَإِمَّا عَادِلٌ وَإِمَّا ظَالِمٌ ؛ فَالسَّابِقُ الْمُحْسِنُ بِأَدَاءِ الْمُسْتَحَبَّاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ، وَالظَّالِمُ آكِلُ الرِّبَا، أَوْ مَانِعُ الزَّكَاةِ، وَالْمُقْتَصِدُ الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَلا يَأْكُلُ الرِّبَا.

وَأَمْثَالُ هَذِهِ الأَقَاوِيلِ، فَكُلُّ قَوْلٍ فِيهِ ذِكْرُ نَوْعٍ دَاخِلٍ فِي الآيَةِ ذُكِرَ لِتَعْرِيفِ الْمُسْتَمِعِ بِتَنَاوُلِ الآيَةِ لَهُ وَتَنْبِيهِهِ بِهِ عَلَى نَظِيرِهِ؛ فَإِنَّ التَّعْرِيفَ بِالْمِثَالِ قَدْ يَسْهُلُ أَكْثَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِالْحَدِّ الْمُطْلَقِ»[1].

◆ فصل: كيف نجمع بين أقوال السلف المختلفة في الآية:

من أراد أن يقف على حقيقة قول السلف في الآية فلا بد له مما يلي:

أولاً: أن يجمعها فيقف على مجموع ما جاء عنهم أو أغلبه بقدر ما يتيسر له.

ثانياً: ينظر في الأقوال، فإن استنكر أئمة التفسير بالأثر منها شيء كابن جرير أو البغوي أو ابن كثير أو ابن تيمية أو ابن القيم أو ابن رجب أو ابن حجر وغيرهم؛ طُرح هذا المُنكر، واكتفينا ببقية الآثار الواردة في الآية.

ثالثاً: هذه الآثار التي قَبلَها أهل العلم، إما أن تتعارض فيرجح بينها بقواعد الترجيح بين المفسرين، وإما لا تعارض بينها فتُجمع إلى بعضها؛ ليتبين المعنى الكلِّي للآية عندهم، وهذا له فائدة كبرى في إدراك المعاني الكلية للآية كما لا يخفى.

يقول شيخ الإسلام: «وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا -أي في التفسير- نَافِعٌ جِدًّا؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ وَمَعَ هَذَا فَلا بُدَّ

----

(١) مقدمة في أصول التفسير (١٧-٢٣) باختصار.

مِنَ اخْتِلافٍ مُحَقَّقٍ بَيْنَهُمْ كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الأَحْكَامِ»[1].

◆◆ وبالمثال يتضح المقال:

◆ المثال الأول: يقول تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ ص.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير الـ (غَسَّاق)، وقد لخصها ابن الجوزي في زاد المسير فقال: وفي (الغساق) أربعة أقوال:

أحدها: الزمهرير، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال مجاهد: الغساق لا يستطيعون أن يذوقوه من برده.

والثاني: أنه ما يجري من صديد أهل النار، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال عطية، وقتادة[2]، وابن زيد.

والثالث: أن الغساق عين في جهنم يسيل إليها حُمَةُ كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غيرها، فيستنقع، فيؤتي بالآدمي فيغمس فيها غمسة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويجر لحمه جر الرجل ثوبه، قاله كعب.

والرابع: أنه ما يسيل من دموعهم، قاله السدي. اهـ[3].

قال في «فتح القدير» -بعد قول السدي-: وكذا قال ابن زيد[4].

وهناك قول خامس لم يذكره ابن الجوزي: وهو أن الغساق هو المنتن، ذكره ابن

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (٣٠).

(٢) قال قتادة: هو ما يسيل من فروج النساء الزوانى ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم. فتح القدير ٤/ ٤٤١.

(٣) زاد المسير ٧/ ١٥٠.

(٤) ٤/ ٤٤١، وعزاه لابن زيد أيضاً القرطبي في تفسيره.

جرير عن عبد الله بن بريدة، وبه قال أبو عبيدة وغيره.

والمتأمل في هذه الأقوال عن السلف -رحمهم الله- يجد أنها تختلف لكن لا تتعارض فالغَسَّاق شراب من شراب أهل النار موصوف بأنه:

١) هو ما يجري من صديد أهل النار، من جروحهم وفروجهم ودموعهم، وغير ذلك.

٢) وهذا الصديد منتن في رائحته شديد النتن.

٣) وهو يجري فيجتمع في عين في جهنم تُسمى الغسَّاق، ويسيل إليها أيضاً حُمَةُ -أي سُم- كل ذات حُمَّة من حية أو عقرب أو غيرها، فيغمس فيها أهل النار.

٤) وهو -أيضاً- حال خروجه من أجساد هؤلاء الخاسرين، وحال اجتماعه في هذه العين، وحال غمسهم فيها ؛ هو بارد زمهرير يقتل من شدة برده. أعاذنا الله من ذلك.

ولذا قال ابن كثير وهو يجمع بين هذه الأقوال:

والغساق هو: ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه[١].

◆ **المثال الثاني:** قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴿٤٣﴾﴾ إبراهيم.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير الـ(الإهطاع)، وقد لخصها ابن الجوزي في زاد المسير فقال: فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الإهطاع النظر من غير أن يطرف الناظر، رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد والضحاك وأبو الضحى.

والثاني: أنه الإسراع، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وأبو عبيدة، وقال

---

(١) تفسيره ٤/ ٤٦٥.

ابن قتيبة: يقال أهطع البعير في سيرة واستهطع إذا أسرع.

والثالث: أن المهطع الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد.[1]

والتحقيق أنها تشملها جميعاً كما قرره غير واحد من المحققين وسيأتي بإذن الله.

◆ **المثال الثالث:** قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ الرحمن.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير قوله (رَفْرَفٍ)،وأشهرها قولان:

١) أنها فضول المحابس[2] والفرش والبسط، جاء ذلك عن علي بن أبي طالب، و ابن عباس، ومجاهد، والضحاك ﷺ وغيرهم.

٢) أنها رياض الجنة، قال سعيد بن جبير: الرفرف رياض الجنة خضر مخضبة. ويروى ذلك عن ابن عباس، وبه قال أبو إسحاق.

والتحقيق أنها تشمل هذا وذاك كما سيأتي بإذن الله.

◆◆ المسألة الثانية : مقارنة ما ورد عن السلف من التفسير بما جاء في كتب اللغة المصحَّحَة كتهذيب الأزهري والصِّحاح للجوهري ونحوهما.

من المتقرر أنه لابد من وجود ارتباط بين اللفظ والمعنى في التفسير بل في كل كلام مفيد، لذا تولى الله –عز وجل– بنفسه بل وكرر بيان هذه العلاقة بين القرآن وبين لغة الضاد ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾، ﴿ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا ﴾ ،﴿ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا ﴾، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ ويكفي في ذلك أن الله عز وجل أنزل في ذلك عشر آيات محكمات من آيات

----

(٢) ٤/ ٣٧٠.

(٣) المحابس: هي المفارش التـي تبسط علـى وجه الفِراشِ للنوم يُقال لما زاد عن الفراش منها رفرف.

هذا الكتاب العظيم.

يقول ابن قتيبة: القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقِن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة وماتت الخواطر[1].

وقال الإمام مالك: لا أوتَى برجلٍ غير عالمٍ بلغة العرب يفسِّر كتاب الله إلا جعلته نكالا.[2]

فإذا كان كذلك فإن بُعدَ الناس -خصوصاً في هذا العصر- عن لغة العرب أورثهم عدم فهم لكلام السلف في التفسير، فتارة يستغربونه، وفي أُخرى يطرحونه، ومرةً يستدلون به على غير مراده وغير ذلك كثير.

ولذا من أراد أن يتضح له المعنى الكلِّي للآية فلا بد أن يفهم ما ورد عن السلف، ولن يفهم مرادهم فهماً جلياً -لا لبس فيه- إلا بالنظر في معاني الكلمات من كتب اللغة الموثوقة.

وهذا لا يلزم في كل آية ولا في كل كلمة، وإنما فيما يحتاج إلى ذلك منها.

فإن قلتَ فما ضابط ذلك ؟

فأقول: هذا ما من أجله كُتبت المرحلة الثانية، والله وحده أعلم.



---

(١) تأويل مشكل القرآن (٦٨).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٢٣٢).



المرحلة الثانية

إدراك المعنى اللغوي للكلمات الواردة في الآية ومقارنته بما جاء عن السلف، ثم الجمع بينهما لتحديد المعنى الكامل والصَّحيح للكلمة نفسها.

البدء بهذا الأمر قبل ما نستقبل من المراحل من الأهمية بمكان، بل لا يمكن أن يتضح معنى الآية بكل دلالاته إلا بها، وذلك أن المفردة هي الأصل الذي يُبنى عليه ما بعده.

◆ **يقول الإمام الزركشي: فصل فيما يجب على المفسر البداءة به:**

الذي يجب على المفسر البداءة به العلوم اللفظية، وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللبن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه، قالوا: وليس ذلك في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع وغيره؛ وهو كما قالوا؛ لأن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته[1].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧٣.

وعدم فهم دلالة الكلمة يؤدي إلى خطأ كبير في تأويل القرآن، ولذا لمَّا لم يَدْرِ عَمرو بن عُبيد المعتزلي[1] ما هو (الوَعْد) عند العرب ؛ ظن أنّ إخلاف الوعد والوعيد واحد: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۝٦﴾ الروم، فزعم أنه لا يجوز لله عز وجل أن يخلف وعيده، فإذا توعَّد الله أحداً كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ الهمزة، أو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ النور، فلا بد أن يعذبهم ولا يعفو عنهم وإلا كان ذلك كذباً وإخلافاً للوعد.

كذا قال، وهذا غلط في فهم الفرق بين (الوَعْد) و (الوعيد) في اللغة التي نزل بها القرآن، فالله لا يخلف وعده وهو أن يعده بالخير، أما الوعيد وهو الإيعاد بالعقوبة فإخلافه ممدوح ويسمونه عفواً وصفحاً لا خُلْفاً وكذباً، والأمثلة في هذا المعنى كثيرة.

----

(١) في تاريخ بغداد (١٢/ ١٧٥) قال الأصمعي: «جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو يخلف الله ما وعده ؟ قال: لا، قال: أفرأيت من أوعده الله على عمله عقاباً أيخلف الله وعده عليه ؟

فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أتيت يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد. إن العرب لا تعد عاراً ولا خُلْفاً أن تعِد شراً، ثم لا تفعله ترى ذلك كرماً وفضلاً، وإنما الخلف أن تعد خيراً ثم لا تفعله، قال: فأوجدني هذا في كلام العرب، قال: نعم، أما سمعت إلى قول الأول:

ولا يرهب ابن العم ما عشت سطوتي ... ولا أختشي من صولة المتهدد
وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

قلتُ: ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول ﷺ فقال:

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

◆◆ (فصل): الناظر في كلمات القرآن -من جهة الوضوح وعدمه- يمكنه جعلها على ثلاث مراتب:

◆ **المرتبة الأولى**: كلمات مشهورة واضحة المعنى والدلالة، مثل: الناس، الشمس، القمر، البحر، الشجر، السمع، البصر، النور، اليتيم، الفقير.

◆ **المرتبة الثانية**: كلمات متداولة واضحة المعنى الظاهر، لكن من يتأمل هذه الكلمات في كتب التفسير ودواوين اللغة؛ سيجد أنها تنطوي على عدد من المعاني البديعة، التي لم تخطر له على بال، وهي معاني صحيحة دلَّ عليها السياق، وقد جاء التصريح بها أو التلميح عنها في كتب التفسير بالمأثور، لكن لعدم ورود احتمال هذه المعاني أصالةً في خاطره ؛ فإن الناظر في تفسير السلف لا يتأمل هذه المعاني في كلامهم، بل قد يُنكِر على المحققين من المتأخرين الخوض في هذه المسائل، ومن جهل شيئاً عاداه.

ومن أمثلة هذه الكلمات: تؤزهم، حرثكم، وشددنا أسرهم، فأجاءها المخاض، كُوِّرت، كُشِطت، كالدهان،الصمد، التغابن، رفرف، عبقري، أحقاباً....

وهذا النوع من الكلمات هي التي سنقف عندها طويلاً في هذه الرسالة.

◆ **المرتبة الثالثة**: كلمات غامضة بالنسبة لكثير من الناس، لا يُدرك معناها إلا بمراجعة كتب التفسير واللغة، مثل: انكدرت، مقمحون، زرابي، الوتين، حمئة، الترائب، زنيم، أبَّا، قضبا، أمشاج،جدُّ ربنا، سائحات، لكنود، .....

ومن هذه الكلمات -بعد المراجعة- ما يُلحق بالمرتبة الأولى، ومنها ما يُلحق بالثانية.

◆◆ إذا تبين هذا فيبقى عندنا سؤال كبير، وهو كيف يصل طالب فهم كتاب الله تعالى إلى معرفة دلالة الكلمة ؟

والجواب: أن معرفة دلالة الكلمة يكون بعرض الكلمات التي تتدبر آياتها على المراتب الثلاث السابقة، ومعرفة درجتها من الوضوح والغموض، فعندما تمر بكلمة في كتاب الله، وتدرك أن فيها شيئاً من الغموض، أو أنها توحي بأن البحث فيها قد يفيد في معرفة دلالة هذه الكلمة بشكل أكبر وأوضح ؛ فعندها نرجع إلى المصادر التي تساعد في بيان هذه الدلالة إن وجدت، وهذه المصادر كثيرة متنوعة، لكني سأحصر البحث في مصادر محددة تُغني الباحث في مراحله الأولى، فأقول:

نحتاج لفهم كلمات الكتاب العزيز فهماً شبه تام إلى ثلاثة مراجع:

- **◆ كتابٌ في التفسير بالمأثور (تفسير ابن جرير أو ابن كثير أو الدر المنثور ونحوها).**
- **◆ تفسير لُغوي بلاغي (تفسير التحرير والتنوير أو أبي السعود، البيضاوي ونحوها).**
- **◆ كتابٌ في اللغة (الصحاح للجوهري، مختار الصحاح، مفردات الراغب الأصفهاني) .**

مع الحذر من الأخطاء العقدية خصوصاً في مسائل الأسماء والصفات لله عز وجل في «التحرير والتنوير»، وأبي السعود، والبيضاوي، ومفردات الراغب، وإن أشكل عليك أمر فقارن بتفسير السعدي أو بكتاب «أنوار الهلالين في التعقبات على الجلالين» للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس.

◆ أما عن كيفية الاستفادة من هذه المصادر ؟ فعلى النحو التالي:

عندما نمر بكلمة في كتاب الله على الصفة السابقة ؛ فإننا نعود أولاً: إلى كتاب

في التفسير بالمأثور، وسنجد أن المفسرين بالمأثور يأتون بكلام السلف في بيان المراد بهذه الكلمة، فدقق النظر فيه، ثم انظر -لزاماً- كتاباً في التفسير اللغوي البلاغي فقد يذكر من المعاني ما يوضح كلام السلف، وينبه إلى ما كان خافياً عليك منه، وقد يضيف معاني صحيحة لم تأت صريحة فيما سبق، ثم قارن ذلك بكتاب في اللغة وليكن «الصحاح» مثلاً، وهذه أمثلة تُوضّح ما ذُكر -أبدأها بالأيسر فهماً-:

◆ **المثال الأول: قوله تعالى:** ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا ١٦﴾ مريم.

كثير من الناس يفهم من الآية فهماً سريعاً، وهو أن مريم عليها السلام ابتعدت وخرجت عن قومها لتتفرغ لعبادة ربها أو لحاجة لها ونحو ذلك، وهذا فهم صحيح؛ لكن الآية تدل على أبلغ من هذا، وذلك أنا إذا تأملنا كلمة (انتبذت) نجد أن فيها معنى زائداً يدل على أن خروج مريم ليس خروجاً عاديا، بل هو خروج شديد فيه طرح واعتزال ونبذ لقومها، وكأنَّ أهلها وعشيرتها وقومها شيءٌ منبوذٌ غير مرغوب فيه بالنسبة لها، أخذته وألقته بشدة بعيداً عنها تخلصاً منه، وهذا يُفهم من تأمل الكلمة،وله أمثلة كثيرة في كتاب الله.

◆ **المثال الثاني: قوله تعالى:** ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ مريم.

لننظر أولاً في تفسير بعض السلف:

◆ **قال مجاهد:** عتيًّا، يعني نحول العظم.

وقال ابن زيد: العتي الذي قد عتا عن الولد فيما يرى نفسه لا يولد له.

ثم لِننظر في أصل الكلمة «عِتياً»: هي مأخوذة من العُتُو وهو كلُ مبالغ فيه مما

يُذم أو يُعاب، ويتجلى الأمر أكثر عندما نعود ــ مثلاً ــ إلى كتاب « التحرير والتنوير» (٨/ ٧٠) فيبين أن كلـمــة «عِتيا» و «عُتيا» «تطلق على الشيء اليابس، إذاً فقد وقع لزكريا عليه السلام كِبَرٌ في السن مبالغ فيه، حتى انحلت منه عظامه، ويبست يبوساً شديداً.

نخلص من هذا، أن زكريا تضرع إلى ربه بضعفه الشديد، حيث إنه (قد كبرت سنه، وبلغ به الكبر مبلغًا يبس معه العظم)، فأصبح لا رطوبة ــ مطلقاً ــ في بدنه ينتج منها ماء الولد، فكيف له مع ذلك بالولد ؟!.

◆ **المثال الثالث: قوله تعالى:** ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴿٢٣﴾ ﴾ مريم.

لو تأملنا كلمة «فأجاءها» لوجدنا أنها ليست (جاء)، وليست (ألجأ) بل هي كلمة دلَّت على ما تدل عليه هاتين الكلمتين جميعاً بأبلغ وأوجز عبارة.

بيان ذلك: أن أصل (أجاء) هو (جاء)، ولو وردت الكلمة هكذا (جاء) لكان المعنى أن المخاض جاءها، وهذا ليس إلا جزء من المعنى فقط، فلما دخلت عليها همزة التعدية أضافت لها معنى آخر غير المجيء، وهو أن المخاض لما جاءها جاء بها إلى جذع النخلة، كالفرق بين: لجأ وألجأ، وذهب وأذهب، نام وأنام، سمع وأسمع، وغيرها كثير.

وهذا المجيء لم يكن على سبيل الاختيار وإنما على سبيل الاضرار كما دل عليه السياق.

◆ **والمراد أن المخاض لما جاءها ألجأها إلى جذع النخلة،** ولذا جاء تفسير السلف لـ (فأجاءها) أي (ألجأها) وهذا من عظيم إدراكهم لمعاني القرآن.

◆ **المثال الرابع: قوله تعالى:** ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ مريم.

لننظر أولاً في تفسير بعض السلف:

فعن ابن عباس قال: تغريهم إغراء.

وعن قتادة قال: تزعجهم إزعاجاً في معصية الله.

وعندما نرجع إلى الصِّحاح في مادة «أزز» يقول لك:

الأزيز: صوت الرعد، وصوتُ غَلَيان القِدْر... والأَزُّ: التهييج والإغراء... والأَزُّ: الاختلاط، وقد أَزَزْتُ الشيءَ أَؤُزُّهُ أَزّاً، إذا ضممتُ بعضَه على بعض.

فنجد أنها تُطلق على أمور منها:

١- الصوت الشديد المضطرب.

٢- التهييج والإغراء.

٣- الاختلاط. وهناك معنى رابع ذكره صاحب «اللسان»: وهو الامتلاء، تقول العرب: أزَّ المجلس، إذا امتلأ وغصَّ بالناس.

وهذه المعاني كلها مناسبة للسياق، وبتأملها يتجلى سرُّ اختيار هذه الكلمة، فالشياطين:

أولاً: تختلط بالكافرين والفاسقين وتتمكن منهم.

ثانياً: توسوس لهم وسوسة شديدة مزعجة؛ فتملأ قلوبهم بشبهاتهم وشهواتهم، ويكون هذا الصوت المزعج سبباً في منعهم من سماع ما يعارضها، فلا يكون فيها

محل لغيرهم.

ثالثاً: تهيجهم وتدفعهم دفعاً شديداً إلى المعاصي، بل وتقويهم وتعينهم عليها عياذًا بالله[1].

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ الرحمن.

جاء عن السلف عدة أقوال في تفسير قوله ﴿ رَفۡرَفٍ ﴾، وأشهرها قولان:

١- أنها فضول المحابس[2]، والبسط، جاء ذلك عن علي وابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم وغيرهم.

٢- أنها رياض الجنة، قال ابن جبير: الرفرف رياض الجنة، وبه قال أبو إسحاق.

وهناك أقوال أخرى في المعنى المراد بـ (الرفرف) في الآية الكريمة، أدعها لأبين مأخذ الأقوال السابقة، وأن معناها متقارب، ثم أيّها أقرب إلى مراد الله عز وجل؟.

قال في «اللسان»: الرفرف كِسْرُ [أي ذيل] الخباء ونحوه... وهو أيضاً خِرقة تخاط في أسفل السرادق والفسطاط ونحوه، وقال: والرفرف الشجر الناعم

----

(١) إذا تبين لك ذلك فلا تعجب إن بلغك عن بعض شياطين الإنس أنه أُوتي من القوة والتفنن في باطله أضعافاً مضاعفة، كحال بعض الظلمة، وقد ذُكر لي أن بعضهم يظل رافعاً صوته بالمنكر من القول، واقفاً على قدميه، يهزُّ أردافه ست أو سبع ساعات أو أكثر من ذلك، فهذا من أزّ وإعانة الشياطين له، أعاذ نا الله وذرياتنا وأحبابنا وإخواننا من ذلك.

(٢) المحابس: هي المفارش التـي تبسط علـى وجه الفِراشِ للنوم يُقال لما زاد عن الفراش منها رفرف.

المسترسل....

وأيضاً هناك أقوال أخرى في كتب اللغة لا أطيل بذكرها، ولكن بالتأمل فيما سبق ندرك أن (الرَّفْرَف) يُطلق على ما كان طرفاً أو فضلة في شيء، كالمسترسل من الخيام والبسط والأشجار، أو ساحات وحدائق القصور والمنازل، أو حركة أطراف جناحي الطائر، ومنه في هذا العصر «رفرف السيارة» ونحو ذلك.

◆ **نخلص من هذا: أن المقصود بـ (رَفْرَف خُضر) ما يلي:**

١) ساحات وأفنية قصور أهل الجنة، فهي تَرِفُّ وتهتز خُضْرة ونضْرة، حتى أنَّ أهل الجنة يتكئون على ما استرسل من أشجارها.

٢) أطراف البُسُط والفُرُش المنثورة في بساتين ومجالس أهل الجنة.

٣) أسرة أهل الجنة، لأن الرفرفة تُطلق أيضاً على المفارش التي تُوضع فوق الأسرة، ويكون لها ما يتدلى من على جوانبها.

إذا تبين هذا ؛ فقارن ذلك بما تقدم في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ الرحمن والله أعلم.





المرحلة الثالثة

المرحلة الثالثة معرفة دلالة حروف المعاني التي تربط بين الكلمات.

هذا الأمر من الأهمية بمكان، ذلك أن كلمات القرآن العظيم إن فُهم معناها ودلالتها، بقي معرفة دلالة (**حروف المعاني**) التي تربط بينها، ومعرفة دلالة هذه الحروف لـه سر عجيب في فهم معاني القرآن فهماً دقيقاً واسعاً، يتبين معه سر بديع عظمة كتاب الله، وسيجد من تذوق دلالة هذه الحروف الفرق الشاسع بين فهمه لآيات الكتاب قبل و بعد، وسيقع في قلبه من توقير وتعظيم كتاب الله ما لم يخطر له على بال، وأكبر من هذا ؛ أن الخطأ في تحديد المعنى المراد للحرف في هذا السياق المعين قد يقلب المعنى المراد تماماً، أو يُضعِّف فهمك له، أو يُخِل ببلاغة وفصاحة هذا الكتاب المعجز.

◆ **ومن شواهد ذلك ما حكاه الخطابي في إعجاز القرآن[1]:**

قال رجل: يا أبا العالية قوله تعالى في كتابه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن

----

(١) (ص ٣٩).

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الماعون، ما هذا السهو ؟

قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف عن شفع أو وتر ؟

قال الحسن: مهْ يا أبا العالية، ليس كذلك، بل الذين سهو عن ميقاتها حتى تفوتهم، ألا ترى قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الماعون[1].

ولذا أثر عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال «عن صلاتهم ساهون»، ولم يقل «في صلاتهم ساهون»[2].

وقد تقدم الكلام أن الحروف في لغة العرب تنقسم إلى قسمين: حروف مباني وحروف معاني، وأن حروف المعاني هي الحروف التي تدل على معنى في غيرها، وتأتي رابطة بين الكلمات، لتعطي دلالة معينة يقصدها المتحدث، وتسمى أيضاً حروف الربط، مثل: لام الاختصاص في قوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ ﴾، ودلالة حرف «على» على الظرفية مع الاستعلاء في قوله تعالى ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا... ﴾ وسيأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل إن شاء الله.

ومع كثرة المؤلفات القديمة والحديثة في حروف المعاني إلا أني سأختار مرجعاً واحداً فقط -تيسيراً وتسهيلاً- وهو «**معجم حروف المعاني في القرآن الكريم**»، لأن المقصود هنا الوصول إلى المعرفة الأولية لمعاني هذه الحروف، لا التحقيق والتدقيق في المضائق، ولتوضيح ذلك، **فإن معرفة دلالة حروف المعاني على ثلاث درجات:**

----

(١) وليست للعلو المجرد بمعنى « على » كما سيأتي بيانه.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٥.

◆ **الدرجة الأولى: إدراك المعاني المشهورة لكل حرف، مثل:**

«ال»: في كتاب الله لها معنيان مشهوران عهدية أو جنسية، ولكل منهما أنواع.

«الفاء»: لها عدة معاني: السببية، الفصيحة، العاطفة، الجوابية،...

«الباء»: لها عدة معاني: الإلصاق، التبعيض، السببية، القسم،...

«في»: أصل معانيها الظرفية،وتأتي للتعليل، والاستعلاء، والمقايسة،...

وهكذا... وهذا يكون بالمطالعة كما يكون أكثر بالممارسة.

◆ **الدرجة الثانية: إدراك المعنى المراد -تقريباً- لكل حرف بحسب موضعه، مثل:**

«ال»: في قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ جنسية تفيد الاستغراق.

«الفاء»: في قوله (فَٱنۢبَجَسَتْ) فصيحة ــ تفصح عن محذوف ــ أي فضرب فانبجست.

«الباء»: في قوله تعالى: (بِسْمِ ٱللَّهِ) للاستعانة.

«في»: في قوله تعالى: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ) العلو مع الظرفية[1].

«عن»: في قوله تعالى: (وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ) للمجاوزة.

◆◆ **الدرجة الثالثة: التحقيق عند اختلاف أقوال المحققين في المضايق لكي يُحمل الكلام على أفصح الوجوه بلاغة وحُكماً وإحكاماً، ومن أمثلة ذلك:**

- دلالة التعاقب بين «الواو» و «الفاء» في أوائل سورتي المرسلات والنازعات.

----

(١) وليست للعلو المجرد بمعنى « على » كما سيأتي بيانه.

- دلالة «الفاء» في قوله تعالى: ﴿ ...فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ... ﴾.

- دلالة «في» في قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ... ﴾.

والذي نطمح إليه في هذه الرسالة ؛ هو إتقان الدرجة الثانية، أما الثالثة فدرجة تحتاج ــ بعد ما سبق ــ إلى كثير من الممارسة والمدارسة مع أهل الفن.

وينبغي أن يُعلم أن الوقوف على معنى أو معاني الكلمة أسهل بكثير من الوقوف على دلالة حروف المعاني في كل موضع بحسبه، لا أقول ذلك تثبيطاً، لكن حفزاً للأذهان، لتستعد لأمر قد يشق عليها في بادئ الأمر، ذلك أن عدداً ليس بالقليل من هذه الحروف لها عدد كبير من المعاني المتغايرة حيناً والمتداخلة حيناً آخر، ولا يحدد المعنى المراد إلا السياق، وحمل الكلام على أفصح الوجوه، مع عدم مخالفة ما تقرر في تفسير السلف الصالح لهذه الآيات.

◆ جدول يوضح أشهر المعاني لجملة من هذه الحروف:

الأداة	المعاني	الأمثلة
«ال»	للتعريف: (عهدية) (جنسية) (للماهية)	ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. الحمد لله رب العالمين، قل أعوذ برب الناس. وجعلنا من الماء كل شيء حي....

«الباء»	أصل معانيها الإلصاق وتأتي: للمصاحبة للسببية أو الاستعانة للقسم، للظرفية	وهو معنى لايكاد يفارقها، مثل: الذين يؤمنون بالغيب. فليأتوا بشركائهم، فليأت مستمعهم بسلطان مبين. فذكر فما أنت بنعمة ربك...، اقرأ باسمك ربك.... وأقسموا بالله جهد أيمانهم، حتى توارت بالحجاب.
« السين»	للتنفيس في الزمن القريب	سيذكر من يخشى، سيجعل الله بعد عسر يسرا
« سوف»	أبلغ من السين في التنفيس	ولسوف يعطيك ربك فترضى، سوف أستغفر لكم ربي.
«على »	أصل معانيها الاستعلاء وتأتي: للغايـــة،الظرفيـــة	وهو معنى لايكاد يفارقها، مثل: إنها عليهم مؤصدة. فخرج على قومه من المحراب، ودخل المدينة على حين غفلة..
«عن »	أصل معانيهـا المجاوزة وتأتي: سببية	وهو معنى لايكاد يفارقها، مثل: ربنا اكشف عنا العذاب. وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك.
«الفاء»	عاطفة (للتعقيب،السببية) فصيحة، توكيدية جـوابيـة	فجعله غثاء أحوى، فجعلهم كعصف مأكول. فمهل الكافرين أمهلهم...، وربك فكبر وثيابك فطهر... إذا جاء نصر... فسبح بحمد ربك...

«في»	أصل معانيها الظرفيـــة وتأتي: للتعليل، الاستعلاء المقـــايسة	وهو معنى لايكاد يفارقها، مثل: فيها عين جارية. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم...، إذ الاغلال في أعناقهم... فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.
« قد»	مع الماضي للتحقيق والتقريب مع المضارع للتقليل أو التكثير	قد سمع الله قول التي...، قد أفلح من زكاها. وهي في القرآن في ثمانية مواضع كلها عند التحقيق للتكثير منها: قد يعلم ما أنتم عليه،. لم تؤذونني وقد تعلمون.
«اللام الجارة»	أصل معانيهـا الاختصاص وتأتي: للصيرورة، العـلـة الصلة	وهو معنى لايكاد يفارقها، مثل: إنما الصدقات للفقراء. ولذلك خلقهم، ولقد يسرنا القرآن للذكر. وإذقال ربك للملائكة.
«اللامات الأخرى»	لام التعليل، الصيرورة، التوكيد (الابتدائية، المزحلقة، الجحود، الموطئة للقسم، جواب القسم، جواب لو و لولا).	ليبلوني أأشكر أم أكفر، فالتقطه آل فرعون ليكون.. وللآخرة خير لك من الأولى، إن الانسان لفي خسر، وما كان الله ليطلعكم على الغيب. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم...، لتركبن طبقاً عن طبقٍ. لو نشاء لجعلناه حطاماً، ولولا أن يكون الناس... لجعلنا...
«ما الحرفية»	نافية، مصدرية، مؤكدة (كافة،غير كافة)	ما هذا بشراً، ما دمت حيا. إنما الله إله واحد، وإذا ما غضبوا هم يغفرون.

«ما الاسمية»	شرطية، موصولة، استفهامية، تعجبية.	تفيدان العموم: وما تفعلوا من خير...، فانكحوا ما طاب... الحاقة ما الحاقة، فما أصبرهم على النار.
«مِنْ»	أصل معانيها ابتداء الغاية، وتأتي للتبعيض، والتبيين، والتوكيد، والسببية....	وهو معنى لايكاد يفارقها، مثل: تجري من تحتها الأنهار. ومن الليل فاسجد له...، من الجنة والناس. وقلنا ما نزل الله من شيء، مما خطيئاتهم أغرقوا.

◆◆ بقي كيفية الوصول إلى معرفة دلالة حروف المعاني في الآية ؟

سبق أنا اخترنا مرجعاً واحداً فقط هو « معجم حروف المعاني في القرآن الكريم» مع الجدول السابق، فإذا مرَّ بك حرف من هذه الحروف في القرآن الكريم،فاسلك الخطوات التالية:

أولاً: انظر الجدول السابق، وتأمل المعاني المشهورة للحرف.

ثانياً: راجع هذه المعاني في الكتاب السابق بشكل أوسع.

ثالثاً: تأمل في المعنى الذي اختاره المؤلف، وافهم سبب اختياره، وقد تحتاج مع هذه الخطوات إلى من يذلل لك بعض الصعوبات.

◆◆ أمثلة توضح ما سبق:

◆ **المثال الأول: قوله تعالى:** ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ٧١﴾ طه.

لِمَ قال تعالى (في) ولم يقل (على)، مع أن الظاهر إرادة التصليب والتعليق ؟

نجد في كثير من كتب التفسير أن (في) هنا بمعنى (على)، وهذا وإن كان مشهوراً في كتب التفسير، وأيضاً ليس هو بخطأ ؛ لكنه تفسير لجزء من المعنى، لأنه لو كان الأمر كما ذكروه لقال (على) ولم يُقل (في)، لذا فهو ليس بجيد إذا أُريد إيضاح المعنى الكامل للآية.

وإنما المراد -والله أعلم- هو تضمين فعل (صلب) معنى (أدخل) ففرعون من شدة غيظه عليهم ؛ هددهم بأنه سيصلبنهم تصليباً شديداً، حتى كأن أجسادهم من شدة التصليب ستحفر في وسط الجذوع، فكأنها في الجذع لا عليه، فحرف (في) دل على العلو مع الظرفية، وهذا المعنى لا يؤديه حرف (على) كما هو ظاهر.

◆ **المثال الثاني: قوله تعالى:** ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ مريم.

السين الأولى أتت هنا للدلالة على المستقبل القريب، أي أن إبراهيم علية السلام وعد أباه أنه سيستغفر له في الزمن القريب، ولو قال (سوف أستغفر لك ربي) لدل على زمن أبعد، وهو خلاف مراد إبراهيم علية السلام الذي بلغ من إحسانه بأبيه وحرصه على هدايته ما بلغ، مع شدة ما لقيه منه من وعيد وطرد وتهديد وغير ذلك، فهذه السين إشارة إلى نوع من الكمالات الخُلُقية التي اختص الله بها هذا النبي الكريم ومن وفَّق من عباده الصالحين.

وقريب منه ما قاله عطاء الخراساني -في المقارنة التي عقدها بين استغفار يوسف ويعقوب عليهم السلام- قال: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف عليه السلام: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ وقال

يعقوب عليه السلام: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾[1].

◆ **المثال الثالث: قوله تعالى:** ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ... ﴿٢٥﴾ ﴾ مريم.

الهز تحريك الشيء، وفعله يتعدى بنفسه فنقول: هزَّ الرمح أو الشجرة ونحو ذلك، وفي هذه الآية عدّاه بـ (إلى) ليضمن الهزَّ معنى الإدناء والإمالة والتقريب من فاعل الهز، وهي مريم عليها السلام، وفي هذا مزيد كرامة لمريم عليها السلام.

بيان ذلك: أن المنصوص عليه في الآية أنها لجأت إلى (جذع النخلة) لا إلى نخلة كاملة، ومع هذا أُمرت أن تهز الجذع وتميله نحوها، ومن كرامة الله لها أن الجذع لن يستجيب لهزها فقط، بل وسيميل نحوها إجابة لجذبها له بيديها الضعيفتين غاية الضعف، وهذا أبلغ في الإعجاز، وأدل على قدرة العزيز الوهاب جل وعلا.

ثم جاءت الباء في (بجذع النخلة) -وهي للإلصاق- لتؤكد عليها أن تُمكِّن يديها من الجذع -حال هزها- غاية ما تستطيع من التمكن، وهذا أمر لها بفعل كل ما في وسعها من الأسباب الدنيوية.

◆ **المثال الرابع: قوله تعالى:** ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء.

اللام المفردة لها معاني كثيرة جدًّا، وأصل معانيها الاختصاص، قال أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: «أي يسقطون على وجوههم سجداً تعظيماً لأمر الله تعالى، أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيص الأذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل إذ حينئذ يتحقق الخرور عليها، وإيثار اللام للدلالة على

----

(١) الدر المنثور (٤/ ٥٧٩).

اختصاص الخرور بها، كما في قوله: فخر صريعاً لليدين وللفم»[1].

الذقن معروف، والمقصود به هنا الوجه كله كما قاله ابن عباس وقتادة، وإنما خصت الأذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل، وهذا ليس مقصودنا هنا، وإنما المقصود أن ذكر «اللام» هنا عوضاً عن «على» في قوله «للأذقان» للدلالة على معنيين:

معنى «على» وهو الاستعلاء؛ لأن الخرور وقع عليها، ومعنى الاختصاص، أي اختصاصها بالخرور، وخصت هذا الأعضاء بالذكر مع أن اليدين والقدمين تخران أيضاً ؛ لأنها هي المقصود الأعظم من الخرور، لأن كمال الذل والخضوع إنما يكون بها.

◆ **المثال الخامس:** ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾(١٠٣) سورة الصافات .

أذكر أولاً تفسير السلف لهذه الآية:

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: أكبه على وجهه.

وقال عكرمة، والسدي، وابن إسحاق، وغيرهم: أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه.

وقال مجاهد: وضع وجهه للأرض، وأدخل يده ليذبحه. وقال مرة: ساجداً[2].

هذا كلامهم -رحمهم الله-، ولعلي أوضح ما أجملوه،وأنشر ما طووه، فأقول:

تفسيرهم -رحمهم الله- يدور على أن إبراهيم عليه السلام جعل وجه إسماعيل عليه السلام جهة الأرض حال إرادته ذبحه، حتى لا ينظر إلى وجه ابنه حال ذبحه

----

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٩).

(٢) انظر -غير مأمور- تفسير ابن جرير (٢٣/ ٨٠)، والدر المنثور السيوطي ج٧/ ص١١١، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦)، وغيرها.

فيقع منه رحمة لـه فيتردد، وهذا ليس بتكلف ولا تقول، بل هو الذي دلت عليه الآية بكلماتها وأدواتها وسياقها، لذا صرَّح جماعةٌ من السلف بأن هذه هي الهيئة التي أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبح عليها اسماعيل عليه السلام كما تقدم.

وتوضيح ذلك: أن «اللام» في قوله (للجبين) عوض عن «على» للدلالة على معنيين وهما: الاختصاص والاستعلاء، والمعنى أن إبراهيم عليه السلام صرع ابنه إسماعيل عليه السلام على الأرض كما يفهم من السياق.

وهذا الصرع له صفة خاصة به، وذلك أن مجيء اللام الدالة على الاختصاص بدلاً من (على)، وذكر (الجبين) بدلاً من (الجنب)، دلّ ذلك على أن الذبح كان على هيئة غير الهيئة المعتادة، وأن هذا الصرع له صفة خاصة به.

ويزيد ذلك بياناً؛ أن الصرع المعتاد الذي يكون على أحد الشقين لا يُقال فيه «صرعته لجبينه» بل يُقال: «لجنبه أو على جنبه».

وإذا أضفت إلى ذلك ما يتعلق بالمعاني، وهو عظم ما في قلوب الأنبياء من الرحمة، خصوصاً خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وأنه يتعبد الله بها كما يتعبده بتنفيذ أمر الذبح، فجمع بين العبادتين على أكمل وجه، وهذا لا يُوفق له إلا القلة من عباد الله.

فلعله قد بان لك معنى ما ذكره من تقدم السلف رحمهم الله، دون الحاجة إلى رمي ذلك بأنه من الإسرائيليات.

◆ **المثال السادس: قوله تعالى:** ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ الفلق.

وهذا المثال من كيسي فإن كان صواباً فمن الله وحده، وإلا فمني ومن الشيطان، وأستغفر الكريم الرحمن.

أقول: في مثل هذه المواطن ينبغي لقارئ القرآن أن يسأل نفسه ؛ لِمَ جاءت «ال» مع «النفاثات»، ولم تأت مع «حاسد» ؟، وبعبارة أخرى ؛ لِمَ جاءت مع السحر دون الحسد؟

والجواب: أنه بالتأمل قد يُقال ــ والعلم عند الله ــ أنه لما كان السحر باختلاف أنواعه وأشكاله وأغراضه شراً كلُّه،جاءت «ال» هذه المفيدة لاستغراق كل أفراد جنسه، حتى تتحقق الاستعاذة منه كله، والمعنى: ومن شر (كلِّ) نفاثة في العقد.

أما الحسد في أصله فمنه المذموم ومنه الممدوح وهو الغبطة[1]، وهو بهذا يختلف عن السحر الذي هو شر كله، فلم تأت «ال» مع الحسد -مع أن الاستعاذة من شرهما جميعاً- لبيان الفرق بين السحر والحسد، وحتى لا يُظن أن الاستعاذة من الحسد تشمل أيضاً ما هو ممدوح منه، فإن ذلك لا يستعاذ منه، بل يتطلب العبدُ حضوره وحصوله.

◆◆ وهذه أمثلة أخرى، أدعها للمِرَان:

◆ **المثال السادس:** قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الفرقان.

◆ **المثال السابع:** قوله تعالى ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ المزمل.

◆ **المثال الثامن:** الفعل (مرَّ) و(مرّوا) و(يمرون) كما في قوله تعالى﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ يوسف، مع قوله

---

(١) كما في «الصحيحين» في قوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين...».

تعالى﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المطففين، فلِمَ عُدي في الآية الأولى بـ «على»، وفي الثانية بـ«الباء» ؟

◆ **المثال التاسع:** التغاير بين العطف بالواو والفاء في أوائل سورة المرسلات، النازعات.

◆◆ التضمين:

التضمين له علاقة متينة جداً بحروف المعاني ولذا أوردته هنا، وهي كلمة تدور في كتب اللغة بين العروضيين والأدباء والنحويين والبيانيين، ولكل طائفة من هؤلاء معنى خاص يفسرون به التضمين.

والذي يهمنا من هؤلاء هم طائفة البيانيين وكذلك بعض النحاة، فالتضمين الذي نقصده هنا هو: « **إشراب لفظ معنى لفظ آخر**».

وبعبارة أوضح « **إشراب فعل معنى فعل آخر ليدل الفعل الأول على معناه الأصلي وعلى المعنى الذي دل عليه السياق**»[1] لأن غالبه في الأفعال وقد يكون في

---

(١) ينظر مبحث التضمين في مغني اللبيب ص(٨٩٧)، والبرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٣٨، والأشباه والنظائر للسيوطي ص: (١٠)، والإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٠٩، وهناك رسالة صغيرة مفيدة بعنوان «التضمين في العربية بحث في البلاغة والنحو» لـ د. أحمد حسن حامد، وفي (ملتقى أهل التفسير) على الشبكة العنكبوتية جرى تناول هذا الموضوع تحت عنوان (التضمين في القرآن الكريم) وفيه فوائد خصوصاً في مداخلة أخي الشيخ الدكتور عبدالرحمن الشهري، ولم أقف على رسائل جامعية في هذا الموضوع إلا على رسالة ماجستير واحدة في الجامعة الأردنية بعنوان» التضمين في القرآن الكريم: دراسة تطبيقية " تأليف: أحلام محمد عبدالكريم الصمادي، لكنها باللغة الإنجليزية، وما أحرى هذا الموضوع (التضمين في القرآن الكريم والسنة النبوية) برسائل جامعية استقرائية دقيقة.

الأسماء[1]، فهم قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضمينًا.

وهذا التضمين لا يقول به كل النحاة، وإنما يقول به الخليل وسيبويه، وتبعهم على ذلك البصريون، ونصره ابن جني في «الخصائص»، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم في «بدائع الفوائد»، وبه يقول جمهور المفسرين، وعلى رأسهم ابن جرير الطبري، وأبو السعود والقرطبي، وابن كثير، وغيرهم كثير.

◆ **يقول ابن جني:**

« اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه **إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه** وذلك كقول الله عز اسمه ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴿١٨٧﴾ ﴾ البقرة، وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدى أفضيت ب (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة جئت ب (إلى) مع الرفث إيذانًا وإشعارًا أنه بمعناه»[2] ثم يقول: «ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يحاط به ولعله لو جمع أكثره لا جميعه لجاء كتاباً ضخماً وقد عرفت طريقه فإذا مر بك شيء منه فتقبله وأنس به **فإنه فصل من العربية لطيف حسن يدعو إلى الأنس بها والفقاهة فيها**»[3].

----

(١) مثاله قوله تعالى: {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} (١٠٥) الأعراف، فعدى الاسم (حقيقٌ) بـ (على) ليضمنه معنى الحرص أي: (حقيق وحريص على).

(٢) الخصائص ٢/ ٣٠٨.

(٣) الخصائص ٢/ ٣١٠.

◆ **ويقول شيخ الإسلام:**

«والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ومن هنا غلط[1] من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴿٢٤﴾﴾ ص ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴿١٤﴾﴾ الصف أي مع الله ونحو ذلك.

والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴿٧٣﴾﴾ الإسراء، ضمن معنى يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴿٧٧﴾﴾ الأنبياء، ضمَّن معنى نجيناه وخلصناه، وكذلك قوله﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴿٦﴾﴾ الإنسان، ضمَّن يروى بها ونظائره كثيرة»[2].

◆◆ **وقد أقر استعمال التضمين المجمع اللغوي في القاهرة بثلاثة شروط:**

١ – تحقيق المناسبة بين الفعلين والتي تسمى العلاقة.

٢ – وجود قرينة تدل على المعنى الملحوظ مع الأمن من اللبس.

٣ – ملاءمة التضمين للذوق العربي.

◆ **وفائدة التضمين:** هي الإيجاز والاختصار بدل استخدام كلمتين استخدمنا كلمة

---

(١) يقول ابن جني ٢/ ٣٠٦: « باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض: هذا باب يتلقاه الناس مغسولاً ساذجاً من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه... ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا لكنا نقول إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له فأما في كل موضع وعلى كل حال فلا...».

(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٤٢.

واحدة [1].

◆◆ ومن الأمثلة على ذلك:

◆ **المثال الأول:** قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ الإنسان.

يشرب بها: عادة فعل يشرب أن يعدى بـ «من» وقد عدي هنا بحرف «الباء».

والسر في ذلك لتضمين فعل «يشرب» فعل «يروي».

فيكون المعنى: عيناً يشرب منها ويروى بها عباد الله.

فجاءت الآية في أتم أساليب البلاغة والإيجاز، لأن المقصود ليس شربهم فقط بل يشربون منها ويروون بها، لذا عديت بالباء.

فإذا قيل: لِمَ لم يقل «يروى بها» بدل «يشرب» ؟

فالجواب: أن كل شربة في تلك الدار لها لذة، فلو قال «يروى بها» لما دلت على لذة الشربة بعد الشربة، والله أعلم [2].

◆ **المثال الثاني:** قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج.

يُرِدْ فِيهِ: أصل فعل الإرادة يتعدى بنفسه ولا يحتاج إلى فعل حتى يعديه فتقول

----

(١) ينظر مغني اللبيب ص:(٦٨٧).

(٢) قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٣٨: فضمن (يشرب) معنى يروي، لأنه لا يتعدى بالباء فلذلك دخلت (الباء) وإلا ف (يشرب) يتعدى بنفسه، فأريد باللفظ الشرب والري معا فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد.

أردت كذا وكذا، وأراد فلان كذا وكذا، من غير حاجة إلى فعل يعديه إلى مفعوله.

فالآية هنا عدت فعل يرد بـالباء «بإلحاد»، ليضمن -والله أعلم- فعل الإرادة معنىً مناسباً لحرف الجر وهو فعل «الهم» كما ذكره ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد.

فيكون المعنى: ومن يرد أن يلحد في البيت الحرام، أو يهم فيه بهم سوء وظلم وإلحاد، فإن الله سيذيقه من العذاب الأليم[1].

◆ **المثال الثالث:** قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الأنبياء.

الأصل في فعل «نصر» أن يتعدى بـ (على) فيقال: نصرت فلان على فلان، ونصرت المسلمين على الكفار، وهنا عُدي بـ (من) وذلك -والعلم عند الله- لتضمين نصرناه معنى انتقمنا منهم، أو نجيناه منهم، فيكون المعنى: نصرناكم عليهم وانتقمنا منهم[2].

◆ **المثال الرابع:** قوله تعالى في اليتامى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ النساء.

الأصل في فعل أكلوا أن يتعدى بنفسه، فتقول: أكلت كذا وكذا، أو بمن فتقول:

---

(١) قال ابن القيم في «زاد المعاد» ١/ ٥١: فتأمل كيف عدى فعل (الإرادة) ها هنا بـ (الباء) ولا يقال أردت بكذا إلا لما ضمن معنى فعل همَّ فإنه يقال هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم.

(٢) سبق قول شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٣٤٢: ضُمن معنى نجيناه وخلصناه.

أكلت من كذا.

فالآية هنا عدت فعل الأكل بحرف «إلى» لتضمين الأكل معنى «الجمع والضم».

فيكون المعنى: ولا تأكلوا أموالهم بالباطل بأي طريقة، ومن هذه الطرق: أن تجمعوها وتضموها إلى أموالكم حال كون هذا الضم فيه إضرار بهم.

إذاً ليس النهي عن مجرد الأكل الصريح فقط، بل هو نهي عن أي ضم لأموال اليتامى فيه إضرار صريح أو خفي، وهذا المعنى دلت عليه كلمة «إلى».[1]

◆ **المثال الخامس:** قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ النور.

يخالفون عن: الأصل تعديته بنفسه وقد عديت بـ (عن) لتضمن المخالفة معنى الإعراض، أي يخالفون حال كونهم معرضين[2].

وتأمل هذه الأمثلة أيضاً:

قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ الفاتحة.

---

(١) في تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٠: قال مجاهد وسعيد بن جبير وابن سيرين ومقاتل بن حيان والسدي وسفيان بن حسين: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعا.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٦: وقال الحذاق (إلى) على بابها، وهي تتضمن (الإضافة)، والتقدير لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم في الأكل.

وقال أبو السعود في تفسيره ٢/ ١٤٠: نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم.

(٢) قال القرطبي في تفسيره ١٢/ ٣٢٣: ومعنى يخالفون عن أمره أي يعرضون عن أمره.

وقوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ ﴾ المعارج.

والأمثلة كثيرة جداً[1].



---

(١) للاستزادة من الأمثلة ينظر: مغني اللبيب ص(٨٩٧) ومن أمثلته التي ذكرها زيادة على ما تقدم: قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ ﴾ (١٨٧) سورة البقرة، ضمن الرفث معنى الإفضاء فعدي بـ (إلى) مثل ﴿ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ وإنما أصل الرفث أن يتعدى بـ (الباء) يقال أرفث فلان بامرأته، وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُ ﴾ (١١٥) سورة آل عمران أي فلن يحرموه أي فلن يحرموا ثوابه ولهذا عدي إلى اثنين –أي مفعولين– لا إلى واحد، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ ﴾ (٢٣٥) سورة البقرة، أي لا تنووا ولهذا عدي بنفسه لا بـ (على)، وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴾ (٨) سورة الصافات، أي لا يصغون، وقولهم (سمع الله لمن حمده) أي استجاب فعدي يسمع في الأول بـ (إلى) وفي الثاني بـ (اللام) وإنما أصله أن يتعدى بنفسه مثل: ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ ﴾ (٤٢) سورة ق، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ (٢٢٠) سورة البقرة، أي يميز ولهذا عدي بـ (من) لا بنفسه، وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ﴾ (٢٢٦) سورة البقرة، أي يمتنعون من وطء نسائهم بالحلف فلهذا عدي بمن.

و ينظر أيضاً: البرهان للزركشي ٣/ ٣٣٨، ومن أمثلته التي ذكرها: ﴿ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ (١٨) سورة النازعات، والأصل (في أن) لا (إلَى أن)، فضمن ﴿ هَل لَّكَ ﴾ معنى أدعوك، وأيضاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ (٢٥) سورة الشورى، عُديت (يَقْبَلُ) بـ (عن) لتضمنها معنى العفو والصفح.



المرحلة الرابعة

معرفة دلالة الجملة وما يتعلق بها، مثل دلالة الجملة الاسمية والفعلية وأثر التقديم والتأخير ونحو ذلك [١].

الجمل لها أثر في إدراك أكمل المعاني، ومعرفة أتـــمِّ أوجه التفسير عند الكلام على تفسير كتاب الله عز وجل، لذلك فلابد أن يكون طالب العلم عارفاً بدلالات الجمل من جهة علم البلاغة وبالأخص علم المعاني.

والجمل في لغة العرب تنقسم باعتبارات كثيرة، وإنما يهمنا منها ماله علاقة بعلم التفسير، مما يعين على فهم القرآن ثم فهمِ كلام أئمة السلف في التفسير ــ رحمهم اللهَ.

وسنقصر الكلام هنا على مبحثين فقط:

----

(١) وسأقصر الكلام هنا على مباحثه الواضحة قليلة الغموض، وأما دقائق هذه المباحث مع تفصيل الكلام فيها وتناول دلالات التقديم والتأخير والحذف والقصر فهو موجود في المطولات، ولابد من الوقوف عليها لكن بعد هذا المستوى بإذن الله.

◆ **المبحث الأول: دلالة الجملة الاسمية والفعلية.**

◆ **الجملة الاسمية باختصار:** هي التي تتألف من مبتدأ وخبر. فكل جملة صدرها اسم فهي جملة اسمية.

وهذه الجملة - في علم البلاغة - تدل غالباً على الدوام والثبوت دون التقيد بزمن، وهي دلالة مهمة في تفسير كلام الله تعالى.

◆ **والجملة الفعلية:** هي التي تتألف من فعل وفاعل، فكل جملة صدرها فعل فهي جملة فعلية.

وهذه الجملة في - علم البلاغة - تدل غالباً على التجدد والحدوث لتقييده بالزمن، وهي دلالة مهمة في تفسير كلام الله تعالى، كما أن الجملة الفعلية أقوى جرساً في الخطاب، خصوصاً في باب الترغيب والترهيب (الوعد والوعيد)، لاجتماع الحدث والزمن معاً، مع ما تحدثه (حركة) الفعل والفاعل أو ما يقوم مقامهما، وكذا المفعول -إن وُجِد-؛ من قوة التصور لطبيعة الخطاب.

◆◆ **ومن أمثلة ذلك:**

١ - قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الفاتحة.

جيء بالجملة الاسمية - والله أعلم - لإفادة أن الله عز وجل مستحق للحمد استحقاقاً دائماً ثابتاً له سبحانه، لا ينفك عنه بأي وجه من الوجوه.

٢ - قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ الإخلاص.

جيء -والعلم عند الله- بالجملة الاسمية؛ لإفادة أن الله عز وجل له الصمدية

الدائمة الثابتة، فالخلق كلهم يصمدون إليه في كل حين، وعلى كل حال.

٣ - قوله تعالى: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الانفطار.

جيء -والعلم عند الله- بالجملة الفعلية (يَصْلَوْنَهَا..) لدلالة الفعلية على زمن الاصطلاء مع تقوية الوعيد، ثم عطفت عليها الجملة الاسمية (وَمَا هُمْ..) لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات في كونهم غير غائبين عن النار.

٤ - قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾ النبأ.

جيء -والعلم عند الله- بالجملة الفعلية (يَتَسَاءلُونَ) لدلالة الفعلية على تجدد الخوض وكثرة الولوغ فيه، ثم عطفت عليها الجملة الاسمية (هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) دون أن يقول: (الذي يختلفون فيه) أو نحو ذلك، لتفيد أن الاختلاف في أمر (النبأ العظيم) متمكن منهم ودائم فيهم؛ لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات.

٥- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ المعارج، جيء -والعلم عند الله- بالجملة الفعلية (يُصَدِّقُونَ) لدلالة الفعلية على أن التصديق (وهو الإيمان) يحتاج لتجديد ومعاهدة؛ لأنه يزيد وينقص، فلمَّا لم يمكن ثباته على أكمل وجه كان المشروع للمؤمن أن يتعاهد تجديد إيمانه ساعة بعد ساعة، ثم عُطفت عليها الجملة الاسمية ﴿ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ دون أن يقول (يشفقون من..) أو نحو ذلك، لتفيد أن الإشفاق من العذاب ينبغي أن يستديمه المؤمن، وأن يلازمه في كل أموره وأحواله، وذلك لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات.

٦- **قوله تعالى:** ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ التوبة.

فآثر الجملة الاسمية على الفعلية، فلم تأت الآية (قد برئ الله ورسوله) أو نحو ذلك، لدلالة الاسمية على دوام البراءة واستمرارها، وللتوسل إلى تهويلها بالتنوين التفخيمي[1].

٧- **قوله تعالى:** ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ الذاريات.

قال أهل المعاني: إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة، لأن (سَلامًا) جملة فعلية والتقدير: (نسلم عليك سلاماً)، أما (سلام) فالجملة اسمية، والتقدير: (وعليكم سلام)، والجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدوث[2].

٨- **قوله تعالى:** ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ مريم.

٩- **قوله تعالى:** ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ مريم.

فـ (خذ): جاءت الجملة فعلية لأن الأخذ يحتاج إلى تجديد وتقوية.

أما (وسلام): فجاءت جملة أسمية لأن السلام عبارة عن تنزيه وتخلية، وهي

----

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٤٠.

(٢) قال ابن القيم في زاد المعاد ٢/ ٣٨٣، ومثله مختصراً في جلاء الأفهام (ص ٢٧٢)، وكذا في بدائع الفوائد (٢/ ٣٨٥)، قال:

«وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية، تقديره: سلمنا عليك سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية، تقديره :سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن» ا.هـ.

ثابتة له على الدوام نعمة من الله على عبده يحيى عليه السلام، فكانت جملة إسمية.

١٠- قوله تعالى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ ﴾ الكافرون.

﴿ لَآ أَعۡبُدُ ﴾ جملة فعلية مضارعة، تنفي عبادته لمعبودهم في الزمن الحاضر والمستقبل.

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ جملة فعلية فعلها مضارع، تتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل.

﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ ﴾ جملة اسمية، تدل على أن هذه النفوس الكافرة لا تعبد إله محمد ﷺ بل تعبد إلها آخر، وهذا وصف دائم ثابت لها ما دامت كذلك.

﴿ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ جملة فعلية فعلها مضارع، تتناول الحاضر والمستقبل.

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ ﴾ جملة اسمية، فيها النفي عن ذاته الشريفة ﷺ أن يصدر منها ذلك أو أن تتصف به، فنفسه ﷺ لا تقبل الشرك، وتنفيه نفياً مطلقاً مستقراً ثابتاً في كل زمن ومكان وحال.

﴿ عَبَدتُّمۡ ﴾ جملة فعلية فعلها ماضي، تتناول ما عبدوه في الأزمنة الماضية[1].

---

(١) ينظر كلام شيخ الإسلام في الفتاوى (١٦/ ٥٥١- ٥٥٧) عن هذه السورة العظيمة، وهو كلام -مع طوله- نفيس متين ومما قال: «..ولم يقل عنهم: (و لا تعبدون ما أعبد)، بل ذكر الجملة الاسمية؛ ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد، لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة، إذ لا تكون عابدته إلا بان تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد، و من كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط، وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ و احد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله...» ا.هـ.

◆◆ المبحث الثاني: دلالة التقديم والتأخير في الجملة.

والمقصود به هو تقديم ما حقه التأخير والعكس ؛ كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال على الحال، والظرف أو الجاروالمجرور على متعلقهما، ونحو ذلك.

وفوائد ذلك لاتنحصر، قال الجُرجاني في «دلائل الإعجاز»: «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة[1].

ومن فوائد ذلك: بيان الأهم، الحصر، الاختصاص، مراعاة الفاصلة، ونحو ذلك، وهذه أمثلة توضح ذلك:

أ) بيان الأهم، ومثاله:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة.

قال ابن القيم: «وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم، وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد، وهم: آباؤه المتقدمون طبعًا وشرفًا ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم، وحتى عن أبنائهم؛ ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على

----

(٢) ص (٩٦).

آبائهم بالكفر والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم، ثم ذكر الفروع، وهم: الأبناء لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب، فذكر الأصول أولاً، ثم الفروع ثانيا، ثم النظراء ثالثاً، ثم الأزواج رابعاً؛ لأن الزوجة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها»[1].

ب) إفادة الاختصاص أو الحصر:

قال السيوطي: كاد أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر[2] سواء كان مفعولاً أو ظرفاً أو مجروراً؛ ولهذا قيل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة، معناه نخصك بالعبادة والاستعانة، وفي ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ آل عمران، معناه: إليه لا إلى غيره»[3].

◆◆ ومن أمثلة ذلك أيضاً:

١- قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ الزمر، ولم يقل بل اعبد

----

(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٢).

(٢) قال تقي الدين السبكي في كتاب الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص: « اشتهر كلام الناس في أن تقديم المعمول يفيد الاختصاص، ومن الناس من ينكر ذلك ويقول: إنما يفيد الاهتمام، وقد قال سيبويه في "كتابه": وهم يقدمون ما هم به أعنى، والبيانيون على إفادته الاختصاص، ويفهم كثير من الناس من الاختصاص الحصر، وليس كذلك، وإنما الاختصاص شيء والحصر شيء آخر، والفضلاء لم يذكروا في ذلك لفظة الحصر، وإنما عبروا بالاختصاص، والفرق بينهما: أن الحصر نفي غير المذكور، وإثبات المذكور، والاختصاص قصد الخاص من جهة خصوصه..»أ.هـ « نقله في الإتقان ٢/ ١٤١.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٤٠.

الله؛ لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ فصلت، أي إن كنتم تخصونه بالعبادة[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأنبياء، فإنه إنما قال ذلك، ولم يقل: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لأمرين؛ **أحدهما**: تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها... ، **وأما الثاني**: فإنه لما أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم دل عليه بتقديم الضمير أولاً، ثم بصاحبه ثانياً كأنه قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم[3].

ت) التنبيه على السببية: ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ قدمت العبادة على الاستعانة ؛ لأن العبادة سببٌ لحصول الإعانة[4].

٢- قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ٣٠﴾ النور، لأن زنا البصر داعٍ إلى زنا الفرج[5].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ البقرة، فإن التوبة سبب الطهارة.

----

(١) المثل السائر لابن الأثير ٢/ ٣٦.

(٢) ينظر البرهان للزركشي ٣/ ٢٣٦.

(٣) المثل السائر ٢/ ٣٨.

(٤) ينظر المثل السائر ٢/ ٤٣، والبرهان للزركشي ٣/ ٢٣٦.

(٥) ينظر البرهان للزركشي ٣/ ٢٥١.

ث) التقديم للتنويه: ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ العلق، فكونها أول آية تنزلت، يدل دلالة أكيدة على أهمية العلم ووسائله في هذا الدين الخاتم.

٢- قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ١٩ ﴾ محمد، قال البخاري: باب العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)، فبدأ بالعلم[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ ﴾ الرحمن، فذِكْرُ تعليم القرآن بعد اسم الرحمن لله عزوجل ؛ يدل على أن من أعظم آثار رحمته: تعليم القرآن.

ج) التقديم للتحذير : ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨ ﴾ الأنفال، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾ التغابن، قدمت الأموال على الأولاد في الفتنة لأن الفتنة بها أشد وألزم، فكان تقديمها أولى، وكما قال تعالى: ﴿ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا ١١ ﴾ الفتح، فنص على المال، وأما الأولاد فذكر ما يشملهم ويشمل غيرهم.

٢- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ ﴾ فاطر، وإنما قدم الظالم لنفسه للتحذير منه؛ لأن معظم الخلق عليه، ثم أتى بعده بالمقتصدين؛ لأنهم قليل بالإضافة إليه، ثم أتى بالسابقين وهم أقل من القليل، وهذا

----

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٧.

لاشك يورث العبد الوجل الشديد مما سيؤول إليه أمره [1].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف. قال الفضيل بن عياض: يا ويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر [2].

وهذا باب واسع، وهو مبسوط في كتب علوم القرآن، وأتركك مع هذا المثال، فإن الله عز وجل في جميع آيات الجهاد قدَّم ذكر الأموال على الأنفس في بضع عشرة آية كقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗ ﴿٩٥﴾ ﴾ النساء، وقوله: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴿٤١﴾ ﴾ التوبة، وقوله: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الصف، وغيرها كثير جداً.

٤- وجاء تقديم الأنفس على المال في موضع واحد فقط، وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ﴿١١١﴾ ﴾ التوبة.

فما الحكمة في تقديم المال على النفس ؟

وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده ؟

تأمله -رحمني الله وإياك- فإنه مفيد.



----

(١) وهذا أحد ما قيل في توجيه هذا الترتيب، وإلا فهناك أقوال أخرى، ينظر فيها ماذكره القرطبي عند تفسيره لهذه الآية .

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٩.



المرحلة الخامسة

فهم دلالة السياق من اللحاق والسباق.

دلالة السياق من الدلالات المهمة التي يكاد يطبق أهل التفسير على اعتبارها، وقد نص على أهمية دلالة السياق، وعلى اعتبارها من أهم الدلالات التي ينبغي للمفسر أن يعتني بها جماعة من أهل العلم سلفاً وخلفاً، منهم:

مسلم بن يسار[١] فقال: «إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»[٢]، وكذا سليمان بن يسار[٣]، وصالح بن كيسان[٤]، وغيرهم من السلف.

ومن المفسرين ابن جرير، وابن عطية صاحب المحرر الوجيز، والقرطبي في

----

(١) البصري الفقيه الكبير، العالم العابد، إمام التابعين في زمانه.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٧

(٣) الفقيه الإمام عالم المدينة ومفتيها، كان هو وابن المسيب كفرسي رهان.

(٤) الإمام المشهور، سئل أحمد بن حنبل عن صالح بن كيسا ن؟ فقال: بخ بخ، تعظيماً لشأنه.

تفسيره، والعز بن عبدالسلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم خصوصاً في كتاب التبيان في أقسام القرآن وهو من أجود كتبه، وكذلك أبو السعود، وابن كثير، والرازي صاحب التفسير الكبير، والزركشي كما في البرهان، وكذلك الألوسي، والشوكاني، وصديق حسن خان، وغيرهم من أهل العلم.

ودلالة السياق إما أنها تخصص العام أو تقيد المطلق، وفي مقابل ذلك تطلق المقيد أو تعمم الخاص، أو أيضاً ترجح عند اختلاف المفسرين، والأمثلة في هذا أكثر من أن تحصى، ولو أن طالب علم تفرغ لها؛ لجمع منها خيراً كثيراً.

يقول ابن القيم[1]: فائدة: إرشادات السياق: السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، **فمن أهمله غَالَطَ في نظره، وغَالَطَ في مناظرته**، فانظر إلى قوله تعالى ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ الدخان، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير ؟

◆◆ ومن أمثلة ذلك:

◆ **المثال الأول:** قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد، و قوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ﴿٧﴾ ﴾ المجادلة.

قيد السلف المعية المذكورة في هذه الآيات ونحوها بأنها معية العلم، فقال ابن

----

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٨١٥).

عباس: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ عالم بكم أينما كنتم، وعن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: علمه. وهذا كثير عنهم[1].

والحجة في ذلك دلالة السياق، والسياق إنما هو في العلم، قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم[2]، وقال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا قوله تعالى ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فقال: يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها، هلا قرأت عليه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..﴾؟ فعلمه معهم[3].

والآية كاملة هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ المجادلة.

وكذا قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الحديد.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الحديد، فافتتاحها وختامها بالعلم.

◆ **المثال الثاني:** قوله سبحانه ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ النجم ، قال السعدي[4]: قيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء وتكليمه إياه، وهذا اختيار

---

(١) ينظر الدر المنثور ٨/ ٤٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٣.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (١٢٣)

(٤) تفسيره ١/ ٨١٩.

كثير من العلماء رحمهم الله فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام كما يدل عليه السياق، وأن محمدا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسرى برسول الله ﷺ، ولهذا قال ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ النجم، أي رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلاً إليه ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ النجم.

◆ **المثال الثالث:** قوله سبحانه في سورة النازعات: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ إلى آخر الآيات من سورة النازعات.

فأنت حينما تقرأ هذه القصة في كتاب الله جل وعلا فإنك تعجب من موضعها، فالسورة كلها من أولها إلى آخرها في النزع والموت، ثم ما بعد الموت، ثم الراجفة، ثم الرادفة والحافرة، ثم في قيام الطامة الكبرى، فما علاقة قصة موسى عليه السلام بهذه السورة؟ والذي لا يتأمل في دلالة السياق يغيب عنه هذا المعنى، إذ تمر عليه قصة موسى وكأنها في أي سورة أخرى ذكر الله فيها هذه القصة.

وهذه غفلة عن دلالة السياق فإن الله لما قص هذه القصة في هذه السورة كان لابد أن يكون لها معنى خاص بهذه السورة في هذا السياق،وإلا كان مجرد تكرار في سورة تتكلم عن أمر أجنبي عنها.

ولذا كان لابد من التأمل في دلالة السياق، وبالتأمل يظهر معنى جلي -والعلم عند الله- وهو:

أن الله عز وجل لما ذكر تكذيب كفار أهل مكة لرسول الله ﷺ فذكر قولهم: ﴿ يَقُولُونَ

﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ إلى ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾(١٤) سورة النازعات، قال بعدها: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، فلما ذكر تكذيبهم وردهم لخبر رسول الله ﷺ في شأن الساعة، ثم أخبر عن قوته جل وعلا بأنها إنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة، فمن لم يؤمن من هؤلاء الكفار بالبعث والنشور ولم يصدقك يا رسول الله بما أخبرت به، فدعهم فإن مصيرهم كمصير قوم موسى عليه السلام الذين أخذهم الله نكال الآخرة والأولى.

ويدل على ذلك أن كلمة «نكال» إنما تطلق في اللغة على التعذيب والتأديب الذي يكون فيه عبرة للغير ؛ لأن النكال في أصل اللغة إنما هو الرجوع، تقول: نكلت عن كذا أي رجعت عنه، فأخذ الله عز وجل فرعون وقومه أخذةً يكون فيها عبرة وعظة لمن جاء بعده إن كانوا يعقلون.

فذكر الله أهل مكة بما جرى لفرعون وقومه تهديداً لهم بأنهم إن كذبوا محمداً كما كذب فرعون وقومه موسى عليه السلام فإن مصيرهم كمصير أولئك.

هذا هو المعنى الذي دل عليه السياق وهو معنى زائد عن دلالة الآيات بمفردها، لكن السياق دل على هذا المعنى بوضوح.

وهذا النوع من الدلالة أمر زائد على دلالة اللفظ، وهو أحد أنواع دلالات السياق أن يدل السياق على شيء جديد لم يدل عليها اللفظ.

◆ **المثال الرابع:** في سورة الصف قوله تعالى ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ٥﴾ الصف.

من المتقرر أن سورة الصف من أولها إلى آخرها في الجهاد وصف القتال، فمجيء قصة موسى عليه السلام في هذه السورة الذي يظهر من أول الأمر أنها ليست لها علاقة بالجهاد، ولكن دلالة السياق لها دلالة هنا لابد أن تظهر، وإلا يكون الكلام منقطعاً بعضه عن بعض على نحوٍ يبعد أن يقع في كلام الله عز وجل.

فعند تأمل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ .. ﴾ تجد في هذا إشارة إلى قصة موسى عليه السلام في سورة المائدة في قوله سبحانه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴿٢٢﴾ ﴾ المائدة، فأشارت الآية إلى نوع من أذى قوم موسى له، وهو التخلي عنه في موضع الجهاد حيث خذلوه في أشد المواقف الذي هو أشد حاجة إليهم، فلما ذكرت الآية هذه القصة من موسى وقومه، أرادت أن يذكر أمة محمد أن لا يقولوا له كما قال قوم موسى له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون! وإنما يقولون كما قال المقداد بن الأسود: إنا لا نقول كما قال قوم موسى لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المائدة، وإنما نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

لذلك قد جاءت إشارة لهذا المعنى في أول السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ الصف، وأن الذي يقول ما لا يفعل يكون مصيره كمصير قوم موسى.

◆ **المثال الخامس:** اختلف السلف رحمهم الله في المراد بقوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ التكوير.

فمنهم من قال: هي الكواكب والنجوم، جاء ذلك عن علي وابن عباس وغيره.

ومنهم من قال: المراد بالخنس الجوار الكنس: البقرُ الوحشي، والضباء التي تكون في الصحاري والبراري؛ فإنها تخنس إذا رأت الإنسان.

والخنوس لغة: هو الاختباء والاختفاء مع تأخر، والكنس أي: أنها تكنس وتعود إلى أماكنها، والكناسة هي المكان الذي يبيت فيه الحيوان ونحوه، جاء ذلك عن جماعة من السلف مجاهد وإبراهيم النخعي.

ومن المرجحات التي ترجح القول الأول دلالة السياق؛ فإن السورة من أولها جاءت بذكر الكواكب والنجوم والسماء والليل والصبح، فكان الأولى بالذكر بعد هذه الكواكب هو ما يناسبها من أحوال بقية الكواكب الأخرى.

◆ **المثال السادس:** من سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ الماعون.

فدلالة السياق على أن هذه الصفات ليست من صفات أهل الإيمان بل هي من صفات الكافرين المكذبين، فلا يمكن أن يكون مؤمناً كامل الإيمان وهو يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فدلالة السياق هي التي تظهر المعنى الكلي.

وكذلك أن مَنْعَ الماعون ليس من صفات المؤمنين، بل هو من صفات الكافرين. فسورة الماعون تحث على الأخلاق والصفات الواجب على المؤمنين؛ لأن الله جعل البراءة منها من صفات المؤمنين، والذي يقع فيها، فيه صفة من صفات الذي يكذب بيوم الدين، وهذا المعنى لا تفهمه إلا بالربط بين معاني الآيات من أولها إلى آخرها.

◆ **المثال السابع:** قوله تعالى في آخر آية الدين: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢ ﴾ البقرة.

الرابط بين هاتين الجملتين هي الواو، والواو في لغة العرب لا تأتي للشرط أبدا، وكثير من الناس يستنبط أن تقوى الله شرط في التعليم، وليس في الآية ما يدل على ذلك صراحة، ولكن هناك في لغة العرب ما يسمى: بدلالة الاقتران والالتزام، وهي من أنواع دلالة السياق، فهذه الواو دلت على وجود اقتران والتزام.

(فآية الدين) اشتملت على مسائل يجب على الإنسان تعلمها، وختمت الآية بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فدلت الآية على أن هذا العلم يحتاج إلى تقوى، فهذه الواو لاتدل على ذلك بل الذي دل على معنى الشرط هو دلالة السياق[1].

◆ **المثال الثامن:**

في قصة موسى عليه السلام عندما أمر قومه أن يذبحوا بقرة، فجاء في أولها: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ٦٧ ﴾ البقرة، وكان المتبادر أن يأتي بأول أحداث القصة وقوعاً، وهو قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ

----

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – كما في مجموع الفتاوي(١٨/ ١٧٧): وقد شاع في لسان العامة أن قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الباب الأول، حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: واتقوا الله يعلمكم، ولا قال: فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زرني وأزورك وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك مما يقتضى اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين.

﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ البقرة، والسر في ذلك -والله أعلم- أن المقصود من ذكر هذه القصة هو ذكر إعراض اليهود -قبحهم الله- عن تنفيذ أوامر الله عز وجل، وليس المقصود من إيرادها هو ذكر حادثة القتل﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ...﴾.

وهذا تلحظه بيناً في سورة الأنفال في موقعة بدر، فأول السورة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، وجاء جواب السؤال ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ الأنفال، وتلحظه أيضاً في قصة أصحاب الكهف.

◆ **المثال التاسع:** قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ الرحمن.

قال ابن كثير[1]: قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني الخير والشر، وقول الحسن ها هنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها.

◆ **المثال العاشر:** قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ مريم.

قال الإمام الشنقيطي في أضواء البيان[2]: والذي يفهم من سياق القرآن أن

----

(١) تفسيره ٤/ ٢٧١.

(٢) ٣/ ٣٩٧.

الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة، لم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنياً.

قال: ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴿٢٦﴾ ﴾ مريم، يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة، لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به، فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر وإنبات الرطب وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة وبذلك يكون قرة عين لها، لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر، وخرق الله لها العادة بتفجير الماء وإنبات الرطب وكلام المولود لا غرابة فيه.

◆ **المثال الحادي عشر**: قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذه الآيات جاءت في سياق الكلام عن القيامة، فالسباق في يوم القيامة وأهواله وحال الإنسان فيه، واللحاق في العاجلة والآخرة والموت والبعث، فلأي شيء جاءت هذه الآيات الأربع في هذا السياق ؟

أدع الأمر لك، فتأمله جيداً، فأمثاله كثير في كتاب ربك.





المرحلة السادسة

فهم موضوع السورة وما يتعلق به.

المقصود بموضوع السورة إذا أطلق هو: المعنى العام الذي أنزلت السورة من أجله، أو هو الموضوع الذي تدور عليه آياتُ سورةٍ ما.

هذا هو المقصود بموضوع السورة، أو مقصود السورة، أو مقاصد السُّور، وهذا الاسم لهذا العلم لم يكن موجوداً عند السلف بهذه التسمية، كشأن كثير من العلوم التي كانت ممارسة عند السلف، لكن لم تكن التسمية موجودة كعلم النحو والبلاغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث وغير ذلك، وإنما دليل من قال به هو الاستقراء والتتبع لطريقة الأئمة في تفسير كتاب الله(١)،وهذا العلم علم «موضوع السورة» لم يطرق كثيراً في كتب التفسير لا المتقدمين ولا المتأخرين، ولهذا أسباب:

----

(١) يُنظر محاضرة فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: بعنوان « «مقاصد السور وأثره في فهم التفسير»، فهي فاتحة هذا الموضوع.

١ – أن فيه نوع من الجرأة على تفسير كتاب الله جل وعلا، ولهذا أنكره جماعة من أهل العلم من المتأخرين لما في كثيرٍ منها من التكلف والبُعد.

٢ – أن كثيراً من كتب التفسير إنما تناولوا تفسير كتاب الله جل وعلا من خلال مدرسة تفسير الآية والكلمات، كما هو حال مدرسة أهل الأثر وأهل الرأي، أما الربط بين الآيات فلم يفرد له أحد ممن تقدم من الأئمة كتاباً في التفسير.

◆◆ **وهذا اختلف المفسرون فيه على ثلاثة أقوال:**

◆ **القول الأول:** لا تناسب بين السورة والآيات مطلقاً أو غالباً، وهو قول جماعة من المتأخرين منهم الشوكاني كما في فتح القدير[١] قال:

« اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومَنْ تقدمه حسبما ذكر في خطبته».

◆ **القول الثاني:** أنه ما من آية أو سورة إلا ولها موضوع خاص بها ومناسبة بينها

----

(١) ١/ ٧٢.

وبين التي قبلها، وهذا هو القول الذي نصره برهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ في كتابه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، واختاره السيوطي وغيره، ويظهر أنه اختيار ابن العربي -أيضاً- فقد ذكر في تفسيره أنه ألف كتاباً كبيراً في ذلك.

◆ **القول الثالث**: أن ما من سورة في الأغلب إلا ولها موضوع تدور عليها، وكذلك الآيات، فالآية في الأعم الأغلب تكون متصلة بما قبلها وما بعدها، ولا يلزم أن يكون ذلك في كل آية وكل سورة، ولو كان ؛ فالوقوف عليه في كل آية وسورة متعذر.

وهذا القول الثالث: هو القول الأقرب، وقرره الزركشي في كتابه «البرهان»، وهو مقتضى صنيع جماعة من المحققين من أهل العلم: كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، واستعمله الرازي في تفسيره، والطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» وغيرهم.

◆◆ **لكن لابد لمن أراد أن يخوض في هذه المسالك من أمرين:**

◆ **الأمر الأول**: أن يكتفي بما ظهر له من الموضوع وتناسب الآيات من دون تكلف ولا تنطع، على خلاف ما جرى من البقاعي رحمه الله.

◆ **الأمر الثاني**: أن يكون الخائض في هذه المسالك عالماً بأقوال السلف في تفسير الآيات والسور التي يريد أن يستنبط لها مناسبة أو موضوعاً معيناً، وأن يكون مطلعاً عارفاً بعلوم البلاغة خصوصاً علمي «المعاني والبيان».

ومما يرجح هذا القول قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ

حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ هود، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء.

فهذه الآيات تدل على أن جميع آيات القرآن محكمة وأنه لا خلاف فيه، وهذا مدح لكتاب الله وكمال المدح إنما يتم إذا كانت الآيات متناسبة مع ما قبلها وبعدها غالباً.

وإذا كانت السورة في مجملها تحوي موضوعاً، أو مقصوداً واحداً، أو عدة مقاصد تدور عليها، فإن هذا هو تمام الأحكام وتمام نفي الاضطراب والاختلاف.

ويدل على ذلك - أيضاً - فعل السلف، فإن من تأمل كلامهم في التفسير وجد أنهم يعتبرون بمقاصد السور، ولذا قد لا يفهم المرء وجه تفسير السلف حتى يربط بين كلامهم وبين مقصود السورة التي أنزلت من أجله،بل نصوا على عدد من مقاصد السور، ومن ذلك:

١) سورة الفاتحة: وهي أم القرآن، فقد جمعت علوم القرآن كاملة على جهة الإجمال، بل هي أم الكتب السماوية قاطبة.

مقصودها أن تجمع علوم القرآن بحيث تكون كالمقدمة لكتاب الله عز وجل، والفاتحة لجميع مقاصده وأغراضه، ولذا أخرج البخاري[1] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : أم القرآن: هي السبع المثاني والقرآن العظيم.

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري رواه ابن ماجه وغيره: أن الله أنزل مائة كتاب و أربعة كتب جمع علمها في الأربعة،

----

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٣٨ ح (٤٤٢٧).

وجمع علم الأربعة فى القرآن، وجمع علم القرآن فى المفصل، وجمع علم المفصل فى أم القرآن»[1].

٢) سورة براءة: وهي في صفات المنافقين.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة التوبة قال التوبة قال بل هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها[2].

قال سفيان بن عيينة: هذه السورة نزلت في المنافقين[3]. وقال القرطبي: هذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف[4].

٣) سورة الأنفال: وهي سورة بدر.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال ؟ قال: تلك سورة بدر[5].

قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

----

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ٧.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٣٢٢ ح(٣٠٣١)، وأصله في صحيح البخاري ٤/ ١٨٥٢ ح (٤٦٠٠).

(٣) زاد المسير ٣/ ٣٩٠.

(٤) تفسير القرطبي ٨/ ٦٣.

(٥) صحيح مسلم ٤/ ٢٣٢٢ ح(٣٠٣١)، وأصله في صحيح البخاري ٤/ ١٨٥٢ ح (٤٦٠٠).

الأنفال، هي من توابع ما تقدم وروابطه فإن السورة هي سورة بدر كلها[1].

وقال الثعالبي: ولا خلاف أن هذه السورة نزلت في شأن بدر وأمر غنائمه[2].

٤) سورة النحل: و تسمى سورة النعم.

عن قتادة في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴿٨١﴾ ﴾ إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ النحل، قال: ولذلك هذه السورة تسمى سورة النعم[3].

قال الإمام ابن تيمية: سورة النحل و تسمى سورة النعم كما قاله قتادة و غيره[4].

وقال العلامة السعدي: هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متماتها ومكملاتها[5].

وقاله الزمخشري وابن عطية وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم.

٥) سورة طه: وهي سورة الكتب المنزلة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه، فهي سورة كتبه، كما أن مريم سورة عباده ورسله.

ثم علل لذلك فقال: افتتحها بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ طه إلى قوله ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ طه ثم ذكر قصة موسى ونداء الله

----

(١) أحكام القرآن ٢/ ٣٨٧.

(٢) تفسيره ٢/ ٨٠.

(٣) ينظر الدر المنثور السيوطي ٥/ ١٥٤.

(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٣٠٨.

(٥) تفسيره ١/ ٤٣٥.

له ومناجاته إياه وتكليمه له... ثم ذكر قصة آدم لأنها أول النبوات...[1]. إلى آخر كلامه رحمه الله.

٦) سورة مريم: وهي سورة رحمة الله لأوليائه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه كما أن مريم سورة عباده ورسله[2].

وقد تكرر فيها اسم (الرحمن) في اثنتي عشرة آية، وهذا ما لم يقع في أي سورة أخرى من القرآن، وكذا تكرر ذكر الرحمة في السورة كثيراً، ويكفي في ذلك مطلعها ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ مريم، فهي سورة رحمة الله لأوليائه[3].

٧) سورة الأنبياء: وهي سورة الذكر الذي تنزل على الأنبياء جميعاً، أي ما اتفقت عليه الأديان السماوية.

قال شيخ الإسلام: سورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر. ثم علل لذلك فقال: افتتحها بقوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ الآية وقوله ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ وقوله: ﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾[4].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٣٧.
(٢) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٣٧.
(٣) هذا مما استفدته من أخي الشيخ / عمر بن عبد الله المقبل، نفع الله به.
(٤) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٦٥.

٨) سورة العنكبوت: وهي في الفتنة والابتلاء.

وقد بسط مقصودها وأوضحه أتمَّ إيضاح شيخنا الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: في محاضرة بعنوان: «مقاصد السور وأثره في فهم التفسير».

٩) سورة ص: وهي سورة الخصومات.

يقول ابن القيم:... وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة ص من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ إلى أخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم – وهو الدرجات والكفارات – ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامة ثانياً في شأن بني حِلْفه ليغوينهم أجمعين، إلا أهل الإخلاص منهم فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير (ص)[1].

١٠) سورة ق: سورة القوة والعلو.

يقول ابن القيم عن سورة ق:.. والسورة مبنية على الكلمات القافية، من ذكر القرآن وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القَبْل مرتين، وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل والرزق، وذكر القوم وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر: وهو

----

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٦٩٣.

أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح[1].

١١) سورة القمر: وهي سورة إظهار الهيبة.

١٢) سورة الرحمن: وهي سورة إظهار الرحمة.

يقول الرازي: ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة ــ أي سورة القمر ــ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ القمر غير مرة، وذكر في السورة ــ أي سورة الرحمن ــ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ الرحمن مرة بعد مرة، لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة وهذه السورة سورة إظهار الرحمة[2].

١٣) سورة الواقعة: عن مسروق قال: من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة[3].

١٤) سورة القلم: في الأخلاق.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فصل: سورة ن ؛ هي سورة الخلق الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ، قال الله تعالى فيها ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ القلم[4].

١٥) سورة الصف: نزلت في الجهاد، وهذا ظاهر.

----

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٦٩٣.
(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٧٣.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٤٨.
(٤) مجموع الفتاوى ١٦/ ٦٢.

١٦) سورة التكوير: في صفة يوم القيامة.

١٧) سورة الانفطار: في صفة يوم القيامة.

١٨) سورة الانشقاق: في صفة يوم القيامة.

هذه السور الثلاث في وصف يوم القيامة، لكن لكل واحدة منها وصف مغاير لما في أختها، ولذا قال ﷺ كما عند أحمد والترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾، و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[١].

فأمر بقراءتها جميعاً، فتأمل الفرق بينها.

١٩) سورة الليل: قال ابن عباس: إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل[٢].

وهذا ظاهر لمن تأمل آياتها.

٢٠) سورة الكافرون: وهي سورة الإخلاص الثانية، أو سورة التوحيد العملي الإرادي.

يقول ابن القيم عن سورتي الكافرون والإخلاص: وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص وهما: سورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ المتضمن للتوحيد العملي الإرادي، وسورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

----

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٧ وزاد: وأحسبه أنه قال: وسورة هود، وسنن الترمذي ٥/ ٤٣٣ وقال: هذا حديث حسن غريب، قال الحافظ في فتح الباري ٨/ ٦٩٥: حديث جيد.

(٢) الدر المنثور – السيوطي ٨/ ٤٠ .

المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري، فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال وبيان ما يجب تنزيهه من النقائص والأمثال، وسورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له والتبريء من عبادة كل ما سواه ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر[(١)].

٢١) سورة الإخلاص: هي صفة الرحمن، وهي في التوحيد العلمي الخبري.

فعن عائشة أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبروه أن الله يحبه[(٢)].

يقول الرازي: اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد لما ذكرناه، فأحدها: سورة التفريد، وثانيها: سورة التجريد، وثالثها: سورة التوحيد، ورابعها: سورة الإخلاص[(٣)].

وتلحظ أم الأسماء كلها تدور على توحيد الله عز وجل، وسبق كلام ابن القيم قريباً عن سورتي الكافرون والإخلاص.

٢٢) سورة الفلق: نزلت في إزالة الشرور الظاهرة أو الخارجية وكيفية التعوذ منها كما أن الله جعل النهار بضيائه يفلق ظلمة الليل ؛ فهو قادر أن يفلق هذه الشرور الظاهرة ويخرج منها الخير.

----

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٤٣).

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٨٦، وصحيح مسلم ١/ ٥٥٧.

(٣) التفسير الكبير ٣٢/ ١٦١.

٢٣) سورة الناس: نزلت في إزالة الشرور الباطنة أو الداخلية، وكيفية التعوذ منها، وهذه الشرور باطنة فناسبها الاستعاذة بهذه الصفات (رب الناس، ملك الناس، إله الناس).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -في معرض كلامه عن سورة الناس-: فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد، و أما الشر الصادر من غيره فسورة الفلق فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموما وخصوصا، و الله أعلم[١].

وأوضح ذلك ابن القيم بما لا مزيد عليه فقال:

« وهذه السورة -أي سورة الناس- مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سببه الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، (فسورة الفلق) تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، (وسورة الناس) تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل:

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني: في سورة الناس، يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب، والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما، فـ(سورة الفلق) تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، و (سورة الناس) تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة[٢].

----

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ٥٦٣.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٤٧٣.

وهذا قليل من كثير وإلا فمن تدبر في كتاب الله، ونظر في كلام أهل العلم وجد مزيداً على ذلك:

فسورة المائدة في الأحكام.

وسورة الحج في التعظيم (تعظيمِ الله وتعظيم اليوم الآخر وتعظيم شعائر الله).

وسورة المدثر في الدعوة.

وسورة عم يتساءلون في البعث وهكذا.

◆◆ كيف يمكن أن نستخرج المقصود العام للسورة ؟

◆ وهذا يمكن بإحدى ثلاثة وسائل:

١ - أن ينص العلماء من أهل التحقيق على أن مقصود السورة كذا وكذا.

كما نصوا على أن سورة الإخلاص في العلم الخبري، وهو توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية، وأن سورة الكافرون في بيان التوحيد العملي الطلبي وهو المسمى بتوحيد الألوهية، ونصوا على أن سورة النحل نزلت في النعم، وغيرها كما سبق.

٢ - أن يكون موضوع السورة ظاهراً من اسمها، أو من أولها أو بهما معاً.

مثال ذلك: سورة القيامة: فمن اسمها ومن مطلعها مقصود السورة هو الكلام عن يوم القيامة، ولذا عندما تقرأ قوله تعالى في سورة القيامة :﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ فلابد أن تسأل نفسك ما علاقة هذه الآيات بموضوع السورة ومقصدها فهذه الآيات لابد لها من رابط بما

قبلها وبعدها؟

والجواب: أن في هذا إشارة إلى أن مثل هذه السورة لا ينبغي لأي عبد أن تمر عليه مروراً سريعاً من دون تفكر في هذا اليوم العظيم وهو يوم القيامة، فمن قرأها فلا يستعجل بقراءتها فالأمر عظيم.

٣ – الاستقراء: بالتأمل في آيات السورة، والاستقراء يكون نافعاً عند الأصوليين إذا كان كاملاً أو أغلبياً، أما الاستقراء الجزئي فلا عبرة به.

ومثال ذلك: سورة الماعون: جاءت لتأمر بمكارم الأخلاق الواجبة على المؤمنين، وأن من انتقص شيئاً منها فقد ترك شيئاً من واجبات الدين، وأن من اتصف بالصفات التي نهت عنها، فقد اتصف بصفات الذين يكذبون بيوم الدين.

ومثلها: سورة النحل، وطه، ومريم، والأنبياء، وقد تقدم بيان ذلك.





المرحلة السابعة

جمع الآيات التي تتكلم عن موضوع واحد في موضع واحد.

ويسمى في المصطلح المعاصر بالتفسير الموضوعي، وهو الذي ألف فيه الإمام المفسر الفقيه اللغوي الأمين الشنقيطي « أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن».

والمقصود بهذه المرحلة أنه بعد ظهور دلالة السياق ومقصود السورة ؛ ينتقل البحث إلى جمع الآيات من السور الأخرى التي تزيد في بيان معنى الآية أو السورة التي يُراد تفسيرها، ليتبين بذلك الناسخ من المنسوخ والعام من الخاص والمطلق من المقيد والمجمل من المبين.

ويتبين كذلك كيف كانت عناية القرآن البالغة بالتذكير بتوحيد الربوبية، ثم يخلص منه إلى تقرير توحيد الألوهية، وأنه من أجله أُرسلت الرسل؟

وكذا تفاصيل أحوال القيامة من الصعق والبعث والحشر والحساب والصراط، ثم الجنة والنار مما أكثر القرآن من ذكره تكراره ؟

وكذا كيف كان تدرج تشريع الفرائض والأحكام ؟

وكذا يتبين منهج الدعوة المحمدية بوضوح تام، مثل: ما الذي قدمه الله في كتابه وما الذي أخره، وكيف خاطبهم ؟ ومتى قاتلهم ؟ ومتى منع من قتالهم ؟

وغير ذلك كثير من المسائل الكبار.

◆◆ وهذه أمثلة على ذلك:

◆ **المثال الأول: ما قصه الله عز وجل من أحوال جوارح الإنسان يوم القيامة (القلب، الوجه، الرأس، العنق، الشعر، العينان، الطَّرْف، الصوت، الأذنان، الفم، الأيدي، الأرجل، الرُّكَب) كيف يكون حالها في ذلك اليوم؟**

◆ **تأمل هذه الصفات للجوارح في يوم القيامة:**

صفة العينين يوم القيامة: وأذكر لك تسعاً منها فقط:

◆ **الصفة الأولى: ازدياد قوتها وحدة بصرها هناك.**

كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ (٢٢) ق. قال ابن كثير[(١)]: أي قوي؛ لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك، قال تعالى: ﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا ﴾ (٣٨) مريم، وقال تعالى: ﴿ ... رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (١٢) السجدة.

----

(١) تفسيره ٤/ ٢٢٦.

◆ **الصفة الثانية: شخوص العينين وشدة نظرها واتساع انفتاحها حتى تلمع كالبرق، مع الدهشة والحيرة الكاملتين من هول ماترى.**

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ القيامة، بكسر الراء وفتحها قراءتان سبعيتان، وبرِق بالكسر من بَرِق بصرُه يبرُق بَرَقاً وبُرُوقاً إذا تحير واندهش، وبرَق بالفتح من البريق بمعنى لَمَعَ من شدة شخوصه، كم قال تعالى ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۝٩٧﴾ الأنبياء، وقال:﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ إبراهيم.

◆ **الصفة الثالثة: الخشوع والذل.**

كما قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۝٤٤﴾المعارج، وقال: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ النازعات.

◆ **الصفة الرابعة: التقلب في الأحوال والإدراكات.**

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ النور، قال القرطبي[1]: وأما تقلب الأبصار فالزُّرْقَة بعد الكُحْل والعمى بعد البصر، وقيل: تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم .

◆ **الصفة الخامسة: أنها لاتَطْرِفُ خمسين ألف سنة.**

قال تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ إبراهيم.

◆ **الصفة السادسة: أنها لاتستطيع أن تملأ عينها من النار لهولها.**

----

(١) في تفسيره ١٢/ ٢٨٠.

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴿٤٥﴾﴾ الشورى، قال قتادة والسدي والقرظي وسعيد بن جبير وغيرهم: يسارقون النظر من شدة الخوف[١].

◆ الصفة السابعة: أن لون عيون المجرمين هو الزُّرْقَة.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ طه، قال الإمام الشنقيطي في أضواء البيان[٢]: وقال تعالى في زرقة عيونهم: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون.

◆ الصفة الثامنة: أنها ترى معارفها وأحبابها ثم تعرض عنهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ المعارج. قال ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعرف بعضهم بعضا، ويتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض[٣].

وقال ابن كثير[٤]: أي لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

◆ الصفة التاسعة: العمى والطمس على العيون.

كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴿٩٧﴾﴾ الإسراء، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ طه.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ١٦/ ٤٥ وغيره.

(٢) ٧/ ٥٠٥.

(٣) الدر المنثور ٨/ ٢٨١.

(٤) تفسيره ٤/ ١٤٦.

وهذه أحوال لايلزم أن تكون في زمن واحد، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن رجلاً أتاه فقال: أرأيت قوله ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، وأخرى ﴿عُمْيًا﴾؟ قال: إن يوم القيامة فيه حالات: يكونون في حال زرقاً، وفي حال عمياً[1].

◆◆ صفة الرأس يوم القيامة:

◆ الصفة الأولى: الإقناع مع الإهطاع.

كما في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴿٤٣﴾﴾ إبراهيم، فالإقناع للرأس خاصة والإهطاع للجسد كله ومنه الرأس كما ظاهر من الآية.

والإقناع لغةً: هو رفع الرأس ومد العنق، وهذا هو الذي استفاض عن السلف والأئمة في تفسير الآية، زاد بعض أهل اللغة: رفع الرأس مع الميل[2].

والإهطاع لغةً: هو الإقبال على الشيء بالإسراع نحوه أو إدامة النظر إليه، مع الخوف أو الطمع ونحو ذلك[3].

قال الثعالبي في تفسيره[4]: والمهطع المسرع في مشيه نحو الشيء مع هز ورهق

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٥٩٨.

(٢) قال في اللسان في مادة هطع ٨/ ٣٧٢: والإقناع رفع الرأس في اعوجاج في جانب مثل الجانف والجانف الذي يعدل في مشيته فأما رفعه في استقامة فليس عندهم بإقناع.

(٣) قال في الصحاح: هَطَعَ الرجل، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يُقلع عنه، يَهْطَعُ هُطوعاً. وأهْطَعَ، إذا مدَّ عنقه وصوَّب رأسه. وبعيرٌ مُهْطِعٌ: في عنقه تصويبٌ خِلْقَةً. وأهْطَعَ في عدوه، أي أسرع.

(٤) ٤/ ٢٣٤.

ومد بصر نحو المقصد إما لخوف أو طمع ونحوه.

وقال ابن عطية[1]: والمهطع الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره.

وقال أبو السعود[2]: مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

ولذا قال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المعارج، مسرعين مقبلين إليك، مادي أعناقهم، ومديمي النظر إليك متطلعين نحوك[3].

فهذه الأوصاف جميعاً متحققة في وصف هذا الرأس في استجابته لنداء الله له، فهي تقبل على الداعي مسرعة أجسادها، شاخصة أبصارها، ممدودة أعناقها.

وما جاء عن بعض السلف من ذكر صفة واحدة، والآخر يذكر صفة ثانية وهكذا ؛ فإنما هو من اختلاف التنوع لا التضاد كما هو ظاهر، ولذا جمع بينها من تقدم من الأئمة رحمهم الله.

قال القرطبي في تفسيره[4]: والمعنى متقارب، يقال هطع الرجل يهطع هطوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه، وأهطع إذا مد عنقه وصوب رأسه... وبعير مهطع في عنقه تصويب خلقةً، وأهطع في عدوه أي أسرع.

ومن بديع التفسير قول الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد.

----

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٠.

(٢) تفسيره ٩/ ٣٤.

(٣) تفسيره ٤/ ٣٩٥.

(٤) ١٧/ ١٣٠.

◆ الصفة الثانية للرأس: وهي تنكيسه وطأطأته من المجرمين خجلاً من الله عزوجل.

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ السجدة، وهذه الصفة في الزمن بعد الصفة الأولى،فإن الأولى بعد نفخة البعث مباشرة كما قال تعالى: ﴿ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ ﴿٨﴾ ﴾ القمر، وأما الثانية فـ (عِندَ رَبِّهِمْ).

◆ الصفة الثالثة : الأخذ بنواصي المجرمين -وهو الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس-.

كما قال تعالى: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ الرحمن، وقال ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ (١٥) العلق.

◆ الصفة الرابعة: صبُّ الحميم على رؤوسهم في النار.

قال تعالى:﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ الحج ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾ الدخان.

◆◆ صفة الوجوه يوم القيامة:

وقد وقفت على خطبة من خطب الجمعة، وهي وإن كانت خطبة جمعة ! إلا أنها على الطريقة السَّلفية المحمدية من القرآن وإلى القرآن، ففيها ما يشفي ويكفي في بيان هذا الأمر وهي بعنوان «أحوال الوجه يوم القيامة كما بيَّنها القرآن»[١] جاء فيها، وقد

----

(١) وهي لفضيلة الشيخ عمر المقبل ألقاها في مدينة المذنب في شهر جماد الثاني ١٤٢٤ هـ.

أدخلت الترقيم على فقراتها للإيضاح :

«.. في ذلك اليوم تنقسم الوجوه إلى قسمين اثنين فقط:

◆ **الأول:** ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الزمر.

◆◆ مِن أحوال الوجوه السود:

١- وهذه الوجوه المسودّة -والعياذ بالله- لم تصل إلى أرض المحشر إلا بعد أن ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، عند الاحتضار، وقبل الانتقال إلى عرصات الموقف، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنفال وكما قال عزوجل ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ محمد.

٢- بل لقد أيقنوا بإفلاسهم،وسوء حالهم منذ أن رأوا الأمر عياناً، كما قال الله عزوجل: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الملك.

٣- إنها -كما قال الله-: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴾ أي: كالحة عابسة -تظن- أي تستيقن- ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي: داهية عظيمة .

٤- إنها وجوه يومئذٍ:﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ﴾ عبس، فهي وجوهٌ علاها الغبار، وغشاها القتار، وهو شبه الدخان، يغشى الوجه

من الكرب والغم، واستمع إلى سبب ذلك في قول ربك جل جلاله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ يونس.

٥- [الحشر على الوجوه] ﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ الإسراء، ﴿ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ ﴾ الفرقان.

٦- فإذا كان هذا حال هذه الوجوه وهي في العرصات، لم تدخل النار بعد، فما ظنكم بالطريقة التي ستحشر بها هذه الوجوه الكالحة المسودة المكفهرة ؟ وإلى أين ؟ إلى النار !! استمعوا إلى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ القمر، حتى إذا ما وصلوا إلى النار ألقوا وكبوا كباً كما يكب الشيء الذي كرهه صاحبه: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النمل، فلعلهم يستطيعون أن يهربوا هنا أو هناك ﴿ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ القيامة، ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الأنبياء.

فإذا كان هذا حالها وهي تحشر إلى النار، فما ظنك بهذه الوجوه بعد أن تلفحها النار بلهبها المحرق ؟ وما ظنك بها - بعد أن أضناها العطش وسألت الإغاثة لسد ما يجدونه من حرارة بطونهم - فإذا بهم يغاثون بماء كالمهل، يشوي الوجوه، ﴿ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف، اللهم إنا نعوذ بك من حال هؤلاء.

عباد الله: وفي مقابل هذه الأوصاف الموحشة، لتلك الوجوه الكالحة، فإن الله تعالى وصف وجوه أهل الإيمان بأوصاف تليق بها، جزاءاً وفاقاً، إنها وجوه المتوضئين، الراكعين، الساجدين، إنها وجوه الذاكرين المخبتين: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران، يا الله ما أعظم الفرق بينهم وبين من يقدم أرض المحشر وقد بيّض الله وجهه، ونضّر جبينه، ويعده ربه برحمته الخالدة ؟!.

ألا يحق لتلك الوجوه التي بشّرت بجنة ربها، والخلود فيها أن تكون:

١- وجوهاً تعلوها النضارة، والسرور، بلى والله،ولذلك قال الله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ المطففين، وحق لها والله أن تكون ناضرة ! أليست هي الوجوه التي لطالما سجدت لله ! ولطالما تحدرت دموعها من خشية الله ! أليست هي الوجوه التي حفظت ما فيها من جوارح: في سمعها وبصرها ولسانها عما لايرضي الله؟

٢- ثم تاج ذلك كله: أن تتنضر في جنة النعيم برؤية رب العالمين سبحانه وتعالى، ذلك النعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو الزيادة التي وعد الله بها المؤمنين من عباده في قوله﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ يونس.

إنها الوجوه التي قال الله عنها: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ عبس،

٣- إنها وجوه الناس الذين يأخذ أحدهم كتابه بيمينه فيقول ـ من فرحه وسروره ـ ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾.

٤- إنها: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ الغاشية

٥- ولئن كانت وجوه الكفرة، عليها غبرة، وترهقها قترة، فقد سلمت وجوه المؤمنين من ذلك، بل هي كما قال الله: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ يونس . انتهى المقصود من الخطبة .

هذه بعض الجوارح وأدع لك بقيتها لتتأمل صفتها يوم القيامة فيما حكاه الله لك في كتابه.

◆ **المثال الثاني:** ما قصه الله عز وجل من أحوال الجبال يوم القيامة أنها تكون كثيباً مهيلاً، وتكون كالعهن المنقوش، وأنها تسير كالسراب، وهكذا في عدد كبير من الآيات، فهذه الآيات جميعاً تتكلم عن أمر واحد وهو الجبال يوم القيامة، والذي ينبغي أن ندركه بلا ريب يخالطه هو أن هذه الإعادة والتثنية في ذكر ما يؤول إليه أمر الجبال هناك في اليوم الآخر ليس تكراراً محضاً، بل وراء ذلك سر عظيم.

يقول الإمام الأمين الشنقيطي في أضواء البيان[1]: واعلم أنه جل وعلا بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه فبين أنه:

١- ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكها دكاً وذلك في قوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ الحاقة.

٢- ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض وذلك في قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ النمل وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ الكهف، وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ التكوير، وقوله: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) ٤/ ٩٧، وترقيم الفقرات من عندي للتوضيح، والكتاب مطبوع مشهور.

النبأ، وقوله: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾ الطور.

٣- ثم بين أنه يفتنها ويدقها كقوله: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ ﴾ الواقعة أي فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ ﴾ الحاقة.

٤- ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل وكالعهن المنفوش، وذلك في قوله: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ ﴾ المزمل، وقوله: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ ﴾ المعارج ، في المعارج والقارعة، والعهن: الصوف المصبوغ....

٥-ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قوله: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ الواقعة.

٦- ثم بين أنها تصير سراباً وذلك في قوله: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾ النبأ، وقد بين في موضع آخر أن السراب لا شيء وذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ۝٣٩ ﴾ النور.

٧- وبين أنه ينسفها نسفا في قوله هنا: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ ﴾ طه. ا هـ كلامه رحمه الله.

وأنت ترى أنه ذكر بضع عشرة آية من الآيات العظيمات ليبين أحوال هذه الجبال في يوم القيامة ؟

ولا يخفى أن كثرة الآيات في الباب تدل على أهمية الأمر وجليل خطره، كيف والمتكلم المكرر له هو الله جل في علاه؟

◆ **المثال الثالث:** ما قصه الله عز وجل من أحوال السماء يوم القيامة، وهي أعظم من سابقتها، لكني أكتفي بالإشارة إليها فقط لشبهها بأحوال الجبال، وحتى لا أطيل فأثقل عليك، لا حرمني الله دعوة صادقة منك.

◆ **المثال الرابع:** في الفرق بين الأمر بالاجتناب والإخبار بالتحريم في القرآن.

بدءاً يظن بعض من يُسمَّون بالمثقفين من المسلمين أن الخمر ليست حراماً اعتماداً على أن النهي عنها لم يأت بلفظ التحريم كما جاء في الميتة والدم ولحم الخنزير كما في قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴿٣﴾ ﴾ المائدة، وإنما جاء بلفظ ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ المائدة.

وهؤلاء يلزمهم ببدهي القول: أن الزنا وأكل مال اليتيم والطاغوت والأوثان وقول الزور ليست بحرام هي أيضاً؛ لأنه لم يرد النهي عنها بلفظ التحريم في القرآن أبداً، وإنما ورد في الزنا بقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الإسراء.

وفي أكل مال اليتيم ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿٣٤﴾ ﴾ الإسراء.

وفي الطاغوت بقوله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل.

وفي الأوثان وقول الزور بقوله: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحج.

فقوله في الزنا: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ هو نفس قوله في الخمر: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾؛ لأن الأمر بعدم الاقتراب هو نفسه الأمر بالاجتناب لغة وشرعاً وعقلاً كما هو معلوم ظاهر.

فمن أشكل عليه ذلك ؛ فالنهي عن الطاغوت والأوثان وقول الزور وردت في القرآن بلفظ ﴿ فَاجْتَنِبُوا ﴾، فهل يشك مسلم في حرمتها لأنها لم ترد بلفظ التحريم؟! بل النهي عن السبع الموبقات جاء في الصحيحين وغيرهما بلفظ: «اجتنبوا السبع الموبقات،،، الشرك بالله والسحر وأكل مال اليتيم..»[1].

إذا تبين هذا ؛ فنأتي إلى المقصود وهو:

لماذا جاء النهي عن الخمر بلفظ :﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ ولم يأت بلفظ ﴿ حُرِّمَتۡ ﴾؟

وجواب ذلك بجمع الآيات في الباب وقد تقدمت جملة منها وستأتي بقيتها، وبجمعها ثم النظر فيها يتبين -والله أعلم- أن المنهيات في القرآن على قسمين:

◆◆ **منهيات تتعلق بها نفوس غالب الناس فطرة وطبعاً.**

فالله جعل في النفس البشرية السَّوية ميلاً لها -لحكمة أرادها عز وجل- ثم نهاهم عنها لحكمة أخرى وابتلاءً وامتحاناً، ولذا -أي لهذا التعلق الفطري- يقع في هذه المنهيات أكثر رعاع الناس وهمجهم -عياذاً بالله- مثل: الزنا والخمر وأكل الأموال بالباطل ونحو ذلك، فهذه يأتي النهي عنها -غالباً- بلفظ: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ﴾، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ ﴾، ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ﴾، ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾. لأن في هذه الألفاظ الأمر بشيئين: الامتناع والمباعدة معاً، وليس مجرد الامتناع فقط.

◆ **والقسم الثاني: منهيات تنفر منها نفوس أغلب الناس فطرة وطبعاً.**

ولا يميل إليها إلا من فسدت موازينه وانتكست فطرته، إما تقليداً أو عادة أو استكباراً ونحو ذلك، مثل: أكل الميتة والدم ولحم الخنزير -ومعلوم أنه

----

(١) البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (١٤٥).

يأكل النجاسات- ونكاح المحارم وقتل النفس والظلم وغيرها، فهذه يأتي النهي عنها -غالباً- بلفظ ﴿ حُرِّمَتْ ﴾، ﴿ حَرَّمَ اللَّهُ ﴾، ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ﴾، ونحوها، والأمر هنا إنما هو بشيء واحد فقط: وهو الامتناع.

وسرُّ ذلك ؛ أن المنهيات في القسم الأول لما كانت تتعلق بها نفوس غالب الناس احتاج النهي إلى شيئين: الامتناع والمباعدة معاً لأنه إن اقترب وقع، أما المنهيات في القسم الثاني فلما كانت نفوس غالب الناس لا تتعلق بها كفى الأمر بالامتناع وعدم المقارفة فقط.

◆ **ويظهر ذلك جلياً في المقارنة بين النهي عن الزنا والنهي عن نكاح المحارم:**

فمع أن الثاني أشد تحريماً إجماعاً، إلا أن النهي عن الأول جاء بلفظ:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الإسراء، وعن الثاني بلفظ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ النساء، وذلك لتعلق النفوس بالأول وهو الزنا دون الثاني، وهو نكاح ذوات المحارم، وغيرها كثير، والعلم عند الله.

◆ **المثال الخامس: الآيات الواردة في الجهاد.**

مرَّ الجهاد في هذه الشريعة الخاتم بمراحل:

المرحلة الأولى: كان الجهاد في أول الأمر منهياً عنه، مأموراً بضده من الكف والعفو والصفح والصبر ونحو ذلك، وذلك في حال الضعف قبل الهجرة وأول سنتين من الهجرة، وقد نزلت نيف وسبعون آية تنهى عنه في ذاك الحين كما قال أبو السعود في تفسيره[١].

----

(١) ٦/١٠٨.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴿٧٧﴾ ﴾ النساء، وقوله: ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ ﴿١٠٩﴾ ﴾ البقرة:، وقوله: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ الحجر، وقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ الأعراف، وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ المزمل، وغيرها كثير.

◆ **يقول ابن القيم في زاد المعاد**[1]: فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

◆ **ويقول شيخ الإسلام في كلام ماتع له في الصارم المسلول**[2]: فحيث ما كان للمنافق ظهور يخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾، كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

◆ **ويقول ابن القيم - وهو يبين الحكمة من ذلك- :**

الوجه السادس: أنه تعالى نهى المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح، لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيم، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقابلة[3].

---

(١) ذاد المعاد ٣/ ١٥٩.

(٢) الصارم المسلول ٣/ ٦٨٣.

(٣) أعلام الموقعين ٣/ ١٣٨.

المرحلة الثانية: الإذن بالقتال أي مشروعيته دون إيجاب.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ الحج، وفي قوله (أُذِنَ) دلالة على أن هناك منع سابق.

يقول الإمام الأمين الشنقيطي في أضواء البيان:

«وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه... قالوا: ولما كان الجهاد فيه من المشقة، وأراد الله تشريعه شرعه تدريجاً فأذن فيه أولاً من غير إيجاب[1].

المرحلة الثالثة: الأمر بقتال من قاتلهم.

وذلك في قوله تعالى﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ البقرة.

ثم قال الأمين الشنقيطي:.. ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله:﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾[2].

◆ **المرحلة الرابعة: الأمر بقتال الكفار جميعاً.**

وذلك في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ ﴿٥﴾ ﴾ التوبة.

----

(١) ٥/ ٢٦٣.

(٢) نفس السابق.

يقول الأمين الشنقيطي موضحاً:

ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ التوبة، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴿٣٦﴾ ﴾ التوبة[1].

◆◆ لكن هذا القتال ليس مطلقاً بل قيد بقيود منها:

◆ أن القتال يبدأ بالكفار الأدنى مكاناً منَّا.

كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴿١٢٣﴾ ﴾ التوبة، قال قتادة والضحاك في هذه الآية: الأدنى فالأدنى[2].

وهذه المراحل ليس بعضها ناسخاً لبعض، بل هي جميعاً باقية، لكن تنزل كل مرحلة عل الزمن الذي يشابهها، فقد يحتاج إليها في بعض العصور والأزمان كما هو ملاحظ، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام في الصارم المسلول[3]: **أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح**، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة جداً، لكني أختم بالإشارة إلى واحدة من المسائل الكبار لما لها من الأثر في قبول دعوة الداعية أو ردها، وهي جمع آيات (مراحل)

---

(١) نفسه.

(٢) الدر المنثور ج٤/ ص٣٢٤.

(٣) الصارم المسلول ٣/ ٦٨٣.

الدعوة التي مرَّ بها النبي ﷺ، أي ما الذي قدمه الله له وما الذي أخره ؟ وأكتفي في هذه الإشارة بنقلٍ محررٍ عن الإمام شمس الدين ابن القيم في زاد المعاد[1] يقول فيه:

◆ «فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل:

١- أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ.

٢- ثم أنزل عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ المدثر، فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ (يا أيها المدثر).

٣- ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين.

٤- ثم أنذر قومه.

٥- ثم أنذر من حولهم من العرب.

٦- ثم أنذر العرب قاطبة.

٧- ثم أنذر العالمين.

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته، ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

٨- ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال.

٩- ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.

----

(١) زاد المعاد ٣/ ١٥٩.

١٠- ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله له." اهـ

وكما سبق في آيات الجهاد، فهذه المراحل- أيضاً -ليس بعضها ناسخاً لبعض، بل هي جميعاً باقية لكن تنزل كل مرحلة على الزمن الذي يشابهها، فقد يحتاج إليها في بعض العصور والأزمان كما هو ملاحظ.

ولذا كل من أراد أن يدعو قبل أن يتعلم ؛ يقال له: قد خالفت منهج القرآن في تربيته للنبي ﷺ فاقرأ أولاً ثم قم فأنذر، وكذا من دعا الأباعد وترك الأقارب، وكذا بقية المسائل، وبهذا يحذو المرءُ في دعوته حذو النبي ﷺ دون جفاء أو تفريط، ويقع الحافرُ على الحافر، والله أعلم.





المرحلة الثامنة

العناية بتدوين أخبار وقَصص الأئمة سلفاً وخلفاً مع القرآن، ثم الاستشهاد بها في محلِّها من التفسير. [وهذا مع عظيم فائدته إلا أنه من مُلح التفسير لا من متينه]

من أتقن ما سبق من المراحل وضبطها فهو ــ بإذن مولاه ــ امتلأ رياً وحصَّل المقصود من معرفة منهج تعلّم التفسير، وما بقي له مما يحتاج إليه في هذا الفن إلا النظر في المطولات من كتب علوم القرآن ومناهج المفسرين ونحو ذلك.

ولذا أختم هذه المراحل بلطيفةٍ مؤثرة في المتلقي اعتنى بها أهل التفسير بالمأثور، وهي ذكر ما يحضرهم من أخبار وقَصص العلماء والصالحين سلفاً وخلفاً المتعلقة بالآية المفسَّرة في محلِّها من التفسير، لا على سبيل الاستقصاء، وإنما متى خال له أن في ذلك فائدة،إما في إحقاق حقٍّ أو ردع مُبطل، وإما تأثراً وخشية، أو إنابةً وتوبة، أو تزكيةً وتربية، أو تفقهاً واستنباطاً، ونحو ذلك كثير، ثم يذكرها مع الآية التي وردت القصة فيها.

◆◆ **ومن أمثلة ذلك:**

١) **ما ذكره ابن كثير عند قوله تعالى** ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ ﴾ الطور

◆ **حكى ابن كثير في تفسيره:** أن عمر رضي الله عنه خرج يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ وَالطُّورِ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ الطور قال: قسم ورب الكعبة حق! فنزل عن حماره وأستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه.

وعن الحسن أن عمر قرأ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ الطور، فربا لها ربوة عِيْدَ منها عشرين يوماً [(١)].

٢) **ما ذكره السيوطي عند قوله تعالى:** ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ۝٥٠ ﴾ الأعراف.

قال في الدر المنثور: عن عقيل بن شهر الرياحي قال: شرب عبد الله بن عمر ماء باردا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك ؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ۝٥٤ ﴾ سبأ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد وقد قال الله عز وجل: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۝٥٠ ﴾ الأعراف [(٢)].

٣) **ما ذكره الأمين الشنقيطي عند قوله تعالى:** ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣ ﴾ الإسراء.

----

(١) ٤/ ٢٤١.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٤٦٩.

◆ **قال في أضواء البيان:** استنبط عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من هذه الآية الكريمة – التي نحن بصددها – أيام النزاع بين علي وبين معاوية– رضي الله عنهما ـ أن السلطنة والملك سيكونان لمعاوية، لأنه من أولياء عثمان رضي الله عنه وهو مقتول ظلماً، والله تعالى يقول ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، وكان الأمر كما قال ابن عباس.

قال: وهذا الاستنباط عنه ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة وساق الحديث في ذلك بسنده عند الطبراني في «معجمه» وهو استنباط غريب عجيب[(١)].

٤) **ما ذكره ابن كثير في «تفسيره» عند قوله تعالى:** ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الأعراف.

قال ابن كثير: قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً[(٢)].

٥) **ما ذكره ابن تيمية عن عمر بن عبد العزيز في قوله تعالى:** ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴿١٤٠﴾﴾ النساء.

قال شيخ الإسلام: ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان فيهم جليس لهم صائم فقال: ابدءوا به في الجلد ألم تسمع الله يقول (فَلَا تَقْعُدُوا۟)[(٣)].

٦) **ما ذكره البغوي في «تفسيره» عند قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

----

(١) أضواء البيان ٣/ ١٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٣١.

(٣) مجموع الفتاوى ١٥/ ٣١٥.

وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النحل .

قال البغوي: قال أيوب عن عكرمة: إن النبي ﷺ قرأ على الوليد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ... ﴾ إلى آخر الآية، فقال له: يا ابن أخي أعد، فعاد عليه، فقال: إن له والله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر [1].

١) **ما ذكره النحاس** – في كتاب الناسخ والمسوخ– **عند قوله تعالى**: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ الأعلى :قال: عمر بن عبد العزيز: أخرجوا زكاة الفطر من قبل أن تصلوا صلاة العيد فإن الله عز وجل يقول ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ الأعلى [2]. يريد أن الله عز وجل ذكر الزكاة قبل الصلاة.

وهذا استنباط بديع، ولا يخفاك أن هذه السورة ــ سورة الأعلى ــ كان النبي ﷺ يقرأ بها في العيد كما في صحيح مسلم من حديث النعمان وفي الباب عدّة أحاديث.

هذا غيضٌ من فيضِ ما يذكره المفسرون بالأثر في أثناء تفسيرهم لآيات الكتاب العزيز.



----

(١) البغوي ٣/ ٨٢.

(٢) الناسخ والمنسوخ / ٧٦١.

(فصل)

هذا النوع من البيان العملي لمنهج الأئمة -رحمهم الله- له أثره البالغ في زيادة الإيمان، في التهذيب والتربية، في الجدال والإقناع، وغير ذلك، ولذا أذكر بعضاً مما وقفتُ في هذا المعنى، ولعلها تكون -برحمة من الله وفضل- سنة حسنة لجمع ما جاء في هذا المعنى، وضمه إلى السورة التي يتعلق الخبر بها.

١) في سورة الفاتحة:

- أرسل هشام بن عبد الملك إلى غيلان الدمشقي فقال: أَلَسْتَ كنت عاهدت الله لعمر بن عبدالعزيز أنك لاتكلم في شيء من كلامك؟ قال: أقلني يا أمير المؤمنين! قال: لا أقالني الله إن أنا أقلتك يا عدو الله ! أتقرأ فاتحة الكتاب؟ قال: نعم، فقرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، قال: قف يا عدو الله على ما تستعين الله على أمر بيدك أم على أمر بيده[1]؟

- سورة البقرة:

- أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تعلم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً[2].

----

(١) تاريخ دمشق ٤٨/ ٢٠٩.

(٢) شعب الإيمان ٢/ ٣٣١.

- وذكر مالك في الموطأ أنه بلغه أن ابن عمر رضي الله عنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها[1] .

- وعن مجاهد؛ أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء ؟ فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل. (هذا في بيان فضل التدبر على الإكثار من قراءة القرآن[2].

٢) سورة يوسف:

- في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴿٨٤﴾ ﴾ يوسف.

عن سعيد بن جبير قال: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم تعطه الأنبياء من قبلهم –يعني ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ البقرة – قال: ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب إذ يقول ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

- ومن جميل ما يُذكر ؛ أن الشيخ محمد رشيد رضا قد تُوفى عند تفسيره أواخر سورة يوسف لقوله تعالى ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف.

فاللهم فاطر السماوات والأرض أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

٣) سورة المؤمنون:

----

(١) الموطأ ١/ ٢٠٥.

(٢) مصنف عبد الرازق ٢/ ٤٩٠ رقم (٤١٨٨).

• عن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يُركِّضُه إذا هو بصوت من فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ المؤمنون، اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة[1].

• عن الحسن البصري كما في الطبقات لابن سعد قال: إن الحجاج من عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بسيوفكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإنه تعالى يقول ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ المؤمنون[2].

٤) سورة الحج:

• في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الحج. يقول ابن كثير في البداية والنهاية:

وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة ، فاجتمع بهم في القطيعة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً! وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى ﴿ ثُمَّ

----

(١) القصة مشهورة وهي في مسند إبراهيم بن أدهم ١/ ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٨ وغيرهما .

(٢) البخارى (٥٧٢١)، ومسلم (٢٩٩).

بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾[1].

٥) سورة العنكبوت:

- قال ميمون بن مهران: ما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا حق هلاكهم[2].

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ العنكبوت -إلى قوله تعالى-: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ العنكبوت، مع الحديث المتفق على صحته (كل أمتي معافى إلا المجاهرين).

٦) سورة يس:

- في البداية والنهاية لابن كثير: أن ميمون بن مهران قرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ يس، فبكى طويلاً ثم قال: ما سمع الخلائق بنعت قط أشدَّ منه[3].

٧) سورة الزمر:

- كان الضحاك إذا تلا قوله تعالى ﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ الزمر، رددها إلى السَّحر.

٨) سورة الجاثية :

- قرأ تميم الداري رضي الله عنه سورة الجاثية فلما أتى على هذه ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

----

(١) ١٤/ ٢٣.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣١٩.

ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية، فلم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام[1].

٩) سورة الطور:

- تقدمت حادثة عمر الفاروق مع قوله تعالى﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ الطور.

- وعن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الطور فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال علي ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها[2].

وفي تاريخ بغداد: قال زائدة: صليت مع أبي حنيفة في مسجده عشاء الآخرة وخرج الناس ولم يعلم أني في المسجد وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لا يراني أحد قال فقام فقرأ وقد افتتح الصلاة حتى بلغ إلى هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الطور، فأقمت في المسجد أنتظر فراغه فلم يزل يرددها حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر[3].

- وفي الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

----

(١) الدر المنثور ٧/ ٤٢٧.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٥ رقم (٦٠٣٧) وينظر: حلية الأولياء ٢/ ٥٥ .

(٣) ١٣/ ٣٥٧.

﴿ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧ ﴾ الطور، كاد قلبي أن يطير[1].

١٠) سورة القمر :

● قال القاسم بن معين: قام أبو حنيفة ليلة بهذه الآية: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾ القمر يرددها ويبكي ويتضرع[2].

● ومما ذكره ابن كثير عن وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية قال: وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبدالرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت الساعة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥ ﴾ القمر[3].

١١) سورة الحديد :

● لما أُدخل ابن تيمية إلى قلعة دمشق مسجوناً، وصار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ ﴾ الحديد.

● وقال الفضل بن موسى: كان الفضيل بن عياض شاطراً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها سمع رجلاً يتلو ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ١٦ ﴾ الحديد، فقال: يا رب قد آن، فرجع، فأواه الليل إلى خَرِبة، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم:

----

(١) البخاري (٤٥٧٣)، ومسلم (٤٦٣).

(٢) ١٣/ ٣٥٧.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٣٨.

حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمَّنهم، وجاور بالحرم حتى مات[١].

١٢) سورة المزمل:

• سُئل مالك عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، ألم تسمع قوله الله ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ المزمل[٢].

١٣) سورة الزلزلة :

• قال محمد بن كعب الإمام الرباني: لأن أقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾، و﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾، أرددهما وأتفكر أحب إلي من أن أهذّ القرآن[٣].

• وحين نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق قاعد فبكى حين أنزلت فقيل له ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال: يبكيني هذه السورة[٤].

• وعن إبراهيم التيمي قال: أدركت سبعين من أصحاب ابن مسعود أصغرهم الحارث بن سويد فسمعته يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾،حتى بلغ إلى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾، قال: إن هذا إحصاء شديد[٥].

• وقال يزيد بن الكميت: قرأ بنا علي بن الحسين المؤذن في عشاء الآخرة ﴿إِذَا

---

(١) القصة مشهورة، وهي بهذا السياق في تاريخ الإسلام ١٢/ ٣٣٤.

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٤٢.

(٣) صفة الصفوة ٢/ ١٢٣.

(٤) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٧٠.

(٥) حلية الأولياء ٤/ ١٢٧.

﴿زُلْزِلَتِ﴾، وأبو حنيفة خلفه فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبي حنيفة وهو جالس يفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول: يا من يجزئ بمثقال ذرة خير خيراً ويا من يجزئ بمثقال ذرة شر شرّاً أجر النعمان عبدك من النار وما يقرب منها من السوء وأدخله في سعة رحمتك.

قال: فأذنت فإذا القنديل يزهر وهو قائم، فلما دخلت، قال: تريد أن تأخذ القنديل، قلت: قد أذنت لصلاة الغداة، قال اكتم على ما رأيت[1].

١٤) سورة التكاثر:

- وقال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلاً لم يزل البارحة يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى الصبح ما قدر أن يجاوزها، يعني نفسه[2].

- وفي صِفة الصفوة: عن سعد بن زنبور قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن -وكان صيتاً- فقلنا له: اقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزتها

فماذا أؤمل أو أنتظر

----

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٥٧.

(٢) تاريخ دمشق: ٣٢/ ٤٣٥.

أتى لي ثمانون من مولدي

وبعد الثمانين ما ينتظر

علتني السنون فأبلينني ***

قال: ثم خنقته العبرة وكان معنا علي بن خَشْرَم فأتمه لنا فقال:

علتنـــي السنـــون فأبليننـــي

فرقت عظامي وكل البصر[1]

وبهذا تنتهي هذه المراحل الثمان[2]، فتح الله لي ولك أبواب جنانه الثمان، وأسأل الله العفو الغفور أن يتقبلها بقبول حسن، وأن يجعلها ذُخْراً أفرح بها حين ألقاه، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين.



----

(١) ٢/ ٢٣٩.

(٢) بحمد الله في ليلة الخميس الثاني عشر من شهر رجب المحرم لعام ألفٍ وأربعمائة وستة وعشرين للهجرة.



فهرس

